أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

محمد إسماعيل الجاويش

منزلة الرسول

(صلى الله عليه وسلم) الجزء الأول

Looloo
www.dvd4arab.com

المقـــدمة

لرسول الله محمد بن عبد الله ﷺ منـــزلة رفيعة بين الأنبياء والرسل ، اكتسبها مـــن أهمية رســـالته ؛ إذ إنها الرســـالة التى ختم الله بها النبوة ، يقول الله تعالى : ﴿ .. ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليمًا ﴾ (الأحزاب ـ ٤٠) .

ويقول ﷺ :

« مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

وببعث رسول الله ﷺ أكمل الله دينـــه وأتم نعمته يقول (عزّ وجل) : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾ (المـــائدة ـ ٣) .

وببعثه ﷺ نسخ الله كل الشرائع السابقة ؛ لأن رسالته هى الرسالة الموجَّهة إلى الإنسانية كلها ، أى تم انتقال الرسالة من مرحلة القومية إلى مرحلة العالمية ، حيث بعث ﷺ للناس كافة ، وصارت الإنسانية كلها ملزمة برسالته ؛ ولذلك خاطبه ربه فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

لقد صار ما هتف به محمد ﷺ هو شرع الله ونوره إلى البشر إلى آخر الزمان ، وصار ﷺ هو القدوة والأسوة للبشرية جمعاء .

وهذه محاولة لتأمُّل تلك القمة الشامخة فى الفضل والأنوار المبهرة فى الهداية ، وهى دون مقامه ﷺ بكثير ؛ إذ كيف يتأمل الرائى الشمس ليصفها ،

www.dvd4arab.com

وأنى لمن هو متطامن فوق الأرض أن يتطـاول ليصف القمة الباذخة ، إنها جهد المقلّ وعمل العـاجز ؛ لأن شخصـه العظيم أرفع من كل الكلمات وعظمته أسمى من أى كلام .

أرجو أن يكون ما قدمت سجدة طاعة لله وتسبيحة حمد وإجلال لفضله علينا ؛ إذ أرسله إلينا هاديًا وللإنسانية حاديًا لمسيرتها نحو الحق والخير والجمال ، كما أرجو أن يكون صلاة على نبيه الكريم ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

المـؤلف

١

صاحب النَّسب الشَّريف ﷺ

« أنا سيد ولد آدم ، ولا فخر »

صـدق رسـول الله ﷺ

Looloo
www.dvd4arab.com

خيارٌ من خيار

يقول رسول الله ﷺ :

« إن الله خلق الخلق ، فاختار من الخلق آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشًا ، واختار من قريش بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » .

وعن ابن عباس مرفوعًا :

« خير العرب مضر ، وخير مضر عبد مناف ، وخير عبد مناف بنو هاشم ، وخير بنى هاشم عبد المطلب .. »

يقول الدكتور أحمد أمين موضحًا(*) :

والاصطفاء هنا بمعنى اعتبار الخصال الحميدة لا باعتبار الديانة .

من ذرية الخليل عليه السلام

يقول رسول الله ﷺ :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من بنى قريش هاشمًا واصطفانى من بنى هاشم » .

فرسول الله ﷺ من ذرية خليل الله إبراهيم عليه السلام ؛ لذلك فهو خير أهل الأرض نسبًا ؛ إذ إنه ينتمى إلى أشرف القوم ، وإلى أعظم القبائل ،

(*) شروق الإسلام .

وإلى أكرم الأفخاذ ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان ، وعدنان هذا من ولد إسماعيل الذبيح عليه السلام ابن خليل الله إبراهيم عليه السلام .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما :

« بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون »

وهذا يعنى اتفاق علماء الأنساب على أن رسول الله ﷺ من نسل عدنان وهذه السلسلة من النسب معروفة ، كما يتفقون على أن عدنان من ذرية إسماعيل ، ثم إبراهيم عليهما السلام . ولكن سلسلة النسب بين عدنان وإسماعيل غير معروفة .

ويقول الإمام البرزنجى فى مولده :

« وعدنان بلا ريب عند ذوى العلوم النَّسَبِيَّة – أى علماء الأنساب – إلى إسماعيل نسبته ومنتهاه »(*) .

(*) نبذة من السيرة النبوية للعلامة مبشر الطرزى .

Looloo
www.dvd4arab.com

نسل طاهر منزه عن السفاح

لقد ظل رسول الله ﷺ ينتقل من أصلاب الرجال الكرام إلى أرحام الفضليات من النساء ، ولم يصبه سفاح الجاهلية حتى اختاره الله (عزَّ وجل) واصطفاه ليكون رسولاً ورحمة إلى العالمين .

لقد كان الزنا شائعًا فى الجاهلية ، كما كان يشيع أنواع من الزواج لا يتأكد معها نسب المولود إلى والد بعينه ، ونذكر منها على سبيل المثال[1] :

(ا) نكاح الاستبضاع :

فكانت المرأة إذا تطهرت من الحيض أرسلها زوجها إلى رجل يعرفه ، ويجعله يطأ زوجته ، ثم يعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين أن زوجته حامل من ذلك الرجل الذى عاشرها ، وذلك رغبة فى إنجاب ذرية من رجال ذوى مكانة فى أقوامهم .

(ب) نكاح السفاح :

يجتمع عشرة من الرجال أو أقل ، يدخلون على المرأة فيصيبونها ، فإذا حملت المرأة من هؤلاء الرجال تنتظر حتى تضع الحمل ، ثم ترسل إلى هؤلاء الرجال ، وتختار من بينهم الرجل الذى ترغبه ، وتقول : هذا طفلك ، ثم ينتسب الطفل إليه .

(جـ) نكاح البغايا :

كان يوجد مكان لعدد من النسوة ، ينصبن فيه خيامهن ، ثم يأتى الرجال إليهن ، فيعاشروهن ومَنْ تحمل من النساء تأتى إلى القافة[2] فتلحقه على مَنْ ترى أن الولد يشبهه من الرجال ، ويأخذ اسمه ونسبه .

(١) المرأة ومكانتها فى الإسلام . أحمد عبد العزيز الحصين .

(٢) قوم يعرفون الأنساب بالشبه .

هذه أنواع من زواج الجاهلية ، ويتضح منها أنه قد ينتج عنه أبناء لا ينتسبون إلى آبائهم بصورة قطعية ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ :

« ما ولدنى من سفاح الجاهلية شىء ، ما ولدنى إلا نكاح الإسلام » .

فقد كان من أنواع النكاح فى الجاهلية ذلك النوع الذى تعهده الإسلام ، وهو الزواج السائد الآن ، فيؤكد رسول الله ﷺ أنه ولد من نكاح مطابق لنكاح الإسلام ، وبذلك يكون نسبه عليه السلام منزهًا عن سفاح الجاهلية ، ويؤكد رسول الله ﷺ هذه الحقيقة بقوله :

« خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ، ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء » .

وبذلك يكون رسول الله ﷺ ذا نسب طاهر شريف ، فضلاً عن انتمائه إلى الشجرة الكريمة التى تمتد حتى تصل إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

آباء كرام

وعبر هذه السلسلة من الرجال الكرام والسيدات الكريمات أحفاد الأنبياء الأطهار ، تنقّل محمد عليه السلام فى أصلاب الرجال إلى أن كان ثمرة لقاء طاهر مبارك بين أبيه عبد الله وأمه آمنة بنت وهب ، التى كانت أفضل كريمات قريش نسبًا ومنبتًا .

ومما رواه الترمذى أن رسول الله ﷺ قام على المنبر .

فقال : مَنْ أنا ؟

فقالوا : أنت رسول الله .

Looloo
www.dvd4arab.com

فقال : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق ، ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خير فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، ثم جعلهم بيوتًا فجعلنى فى خيرهم بيتًا وخيرهم نفسًا » .

ولقد ظهر فى سلسلة آباء الرسول ﷺ رجال كرام كانت لهم مكانتهم التى حفظها لهم التاريخ ، والتى بها سادوا بين الناس .

إن جده الخامس هو كلاب بن مرَّة الذى كان سيدًا من سادات مكة وزعيمًا من زعماء قريش ، وكان مطاع الكلمة حسن الرأى محبًّا لأهلهَ ، وهو الذى قام بحفر بئرين لأهل مكة حين شحت المياه ، وهو الذى أعطى الشهور العربية أسماءها التى ما زالت تحملها حتى اليوم .

ومن أجداده قصى الذى استطاع أن ينتزع السيادة على مكة من قبيلة خزاعة ، وصار له الإشراف على الكعبة وزعامة مكة ، فأقام دار الندوة بعد أن نظم مكة وجعلها مدينة كبيرة فى الجزيرة العربية .

ومن أجداده هاشم الذى كان سيدًا كريمًا وكان له الإشراف على السقاية والرفادة ، وهما من أكبر مناصب الشرف فى ذلك الزمان .

ومن أجداده عبد المطلب الذى اهتدى إلى بئر زمزم ، وهى بئر إسماعيل عليه السلام التى ظلت مطمومة مجهولة ما يقرب من خمسمائة عام ، وهو الذى واجه أبرهة حين حاول أن يهدم الكعبة بمقولته الخالدة : (إن للبيت ربًّا يحميه وسيحميه) . وكان له فكره المبدع حتى إنه قد سنَّ سننًا أقرها الإسلام ، فهو الذى حرَّم نساء الآباء على الأبناء ، وجعل دية القتيل مائة من الإبل ، وجعل الطواف سبعة أشواط ، وسمى زمزم بعد أن حفرها سقاية الحاج ، وحين وجد كنزًا أخرج منه الخمس وتصدق به ، وهذه السنن قد أقرَّها الإسلام .

هذه كوكبة من أجداد رسول الله ﷺ ، وكان أبوه عبد الله فى عفته وحسن خلقه ورقة طبعه شبيهًا بأبيه عبد المطلب .

وأمُّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وكلاب هذا هو الجد الخامس لرسول الله ﷺ من ناحية أبيه ، إذ إن كلابًا كان قد خلف ولدين هما قصى الذى ينتمى إليه والد الرسول وزهرة الذى تنتمى إليه والدته السيدة آمنة .

وهكذا يتضح أن رسول الله كان ابنًا لآباء كرام ، لهم فضلهم ومكانتهم العظيمة بين سائر العرب ، وقد حملته أمه ، وتوفى أبوه بعد الحمل بشهرين عند عودته من الشام فى تجارة ، ودفن بالمدينة (يثرب) عند أخواله بنى عدى .

ولما تمت مدة الحمل وضعت السيدة آمنة الوليد الذى استبشرت الدنيا بولادته فى صبيحة يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول (أبريل عام ٥٧١م) وهو عام الفيل ، فكان مولده بداية الخير والرحمة للإنسانية جمعاء .

حكم جليلة

وهكذا شاءت إرادة الله (عزَّ وجل) وحكمته أن يكون رسول الله ﷺ فى هذا الشرف فى نسبه ؛ لأنه سوف يحمل أجل رسالة ، وهى دين الإنسانية الخالد ، ويتسلم زمام قيادة الحركة الروحية للعالم كله إلى آخر الزمان ، إذ هو إمام الأنبياء ورسول الدين الخاتم ، فلابد وأن يكون صاحب أشرف نسب ، فيقول ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ، وهو يقرر ذلك ليس على سبيل الفخر والمباهاة ، وإنما للتعبير عن حقيقة واضحة جلية ، تتجلى فيها حكمة الله ومشيئته .

Looloo
www.dvd4arab.com

وثمة تفسير وتبرير آخر يذكره الأستاذ أحمد أمين لتمتُّع رسول الله بهذا النسب الشريف العظيم(*) بقوله : (وهكذا كان رسول الله ﷺ فى شرف من قومه وينتمى إلى أكرم بيوتهم . وقد قدَّر له (عزَّ وجل) ذلك له إعلاءً لشأنه ، وتسهيلاً لمهمته حين بعثه) وثمة تبرير آخر يذكره الأستاذ العقاد لانتساب رسول الله إلى أشرف البيوت وأكرم الأصول . فيقول رحمه الله فى كتابه (الإسلام دعوة عالمية) :

(.. لو كان هذا النبى محرومًا من العصبية لكانت رسالته بالمساواة بين بنى آدم وحواء رسالة من معدنها لا تستغرب من صاحبها ولا من قومه) أى أن رسول الله حين يدعو إلى المساواة بين الناس وليس له شرف الانتساب إلى أكرم البيوت ، فتكون دعوته قائمة على التطلع إلى مطاولة ذوى المكانة العالية ، ومبنية على الطموح للمساواة بين قومه وهم الأدنى وبين ذوى الأنساب الشريفة ، أما وقد ثبت انتماؤه إلى الأصول الكريمة فإن دعوته ليست لها شبهة تحقيق مصلحة شخصية أو مصلحة قبلية أو قومية ، وإنما جاءت لتؤكد مبدأ عالميًا هو المساواة بين الأمم والشعوب ، لأنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أحمر ، وإنما التفاضل بين الناس قائم على مبدأ قرَّره ﷺ فى قوله : « خير الناس أنفعهم للناس » .

* * *

(*) كتاب شروق الإسلام .

٢

صاحب الخَلْق الجميل ﷺ

« ما رأيت شيئًا أحسن من وجه رسول الله ، كأن الشمس تجرى فى عروقه »

أبو هريرة رضي الله عنه

Looloo
www.dvd4arab.com

خلق جميل وسمت حسن

لقد أكرم الله (عزّ وجل) رسوله ﷺ بالخلق الجميل والسمت الحسن والمظهر الطيب ، فكان شكله مقبولاً محبوبًا ، يسهم هذا المظهر الحلو فى إقامة الألفة بينه وبين مَنْ يراه ويتعامل معه ، وهذا أمر مرغوب فيمن يقومون على أمر الرسالات ، إذ إن المظهر الخارجى له دوره فى كسب تقدير المجتمع الذى يخاطبه صاحب الرسالة وتألُّف أفراده .

ولقد كان رسول الله ﷺ فضلاً عما حباه الله من خَلْقٍ جميل ، حريصًا على أن يحافظ على مظهره الحسن من حسن هيئته وزينته ونظافته ورائحته ، وما إلى ذلك من أمور يطالع من خلالها الناس هيئته فتترك الانطباع الحسن عند رؤيته .

وكان رسول الله ﷺ يدرك ما حباه الله مِنْ خَلْق حسن ، فكان يحمد الله تعالى أن رزقه المظهر الطيب ، ويدعو الله أن يتمم نعمته عليه فيمنحه الجوهر الحسن المتمثل فى حسن الخُلُق فكان عليه الصلاة والسلام يقول :

« اللهم كما جَمَّلتَ خَلْقِى جَمِّل خُلقِى »

وكما أدرك رسول الله ﷺ فضل الله عليه أدرك مشاهدوه ومعاصروه هذا الفضل فنطق شاعرهم واصفًا خَلْقه الجميل فقال :

خُلِقْتَ مُبَرَّأً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

وأجمل منك لم تر قط عينى ... وأجمل منك لم تلد النساء

فى عيون معاصريه

إن الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعاشروه ووصفوه من حيث الشكل قد أجمعوا على أن ما حباه الله به من جمال فى الخَلْقِ كان كثيرًا وكان وافرًا .

فى عيون أم مَعْبَد :

مرَّ رسول الله ﷺ خلال رحلته من مكة إلى المدينة بخيمة فى الصحراء تقيم فيها السيدة أم معبد الخزاعية هو وصحبه فى الرحلة ، وطلبوا منها زادًا يشترونه فاعتذرت ، وقالت :

« والله لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى » فنظر رسول الله فرأى شاة هزيلة خلفها التعب عن الخروج مع سائر الغنم لتقتات ، فمسح ضرعها وذكر اسم الله فامتلأ ضرعها باللبن ، فحلب رسول الله وسقى أم معبد ومن كان معه وشرب آخرهم ، ولما جاء زوجها طلب منها أن تصف ذلك الرجل المبارك ، ولم تكن تعرفه فقالت : « رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة (حسن الوجه) ، مبتلج الوجه (مشرقه) ، حسن الخَلْق لم تعبه ثجلة (ضخامة فى البطن) ولم تزر به صلعة (صغر فى الرأس) ، وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف (شعر أجفانه طويل) وفى صوته صحل (رخيم الصوت) أحور أكحل أزج (الحاجب الأزج المقوس الطويل الوافر الشعر) ، أقرن (يتصل شعر حاجبيه) ، شديد سواد الشعر ، وفى عنقه سطع (طول) ، وفى لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات يتحدرن ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر (ليس فى كلامه هجز أو ثرثرة) ، أجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربْعة (متوسط الطول) لا تشنؤه (تبغضه) من طول

Looloo
www.dvd4arab.com

ولا تقتحمه من قصر (تحتقره) ، غض بين غضين ، فهو أنضر الثلاثة[١] منظرًا ، وأحسنهم قدرًا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا أمره ، محفود (أصحابه يسارعون إلى طاعته) ، محشود (الناس يتحشدون حوله) » .

فى عيون أنس :

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه :

« كان رسول الله ﷺ رَبْعَة من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير ، أزهر اللون ليس بأبيض أمهق (ناصع البياض) ولا آدم (شديد السواد) ، ليس شعره بجعد[٢] ولا سبط[٣] » .

فى عيون البراء :

يقول البراء رضي الله عنه :

« كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعًا بعيد ما بين المنكبين[٤] ، عظيم الجمة[٥] إلى شحمة أذنيه ، عليه حلة حمراء ، ما رأيت أحسن منه » ، ويقول أيضًا :

« كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا ، وأحسنهم خلقًا ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير » .

(١) الثلاثة هم رسول الله وأبو بكر وعامر بن فهيرة .
(٢) جعد الشعر : اجتمع وتقبض والتوى .
(٣) سبط : مسترسل .
(٤) بعيد ما بين المنكبين : عريض الصدر .
(٥) الجمة : الشعر النازل من رأسه إلى شحمة أذنيه .

فى عيون قتادة :

ويقول قتادة رضي الله عنه :

« ما بعث الله نبيًّا إلا كان حسن الصوت ؛ وكان نبيكم حسن الوجه ، حسن الصوت ، وكان لا يرجِّع » .

أى لا يرجع ترجيع الغناء بقصد ؛ وليس المراد به التحسين وإشباع المد فى موضعه ؛ إذ إن ذلك جائز .

فى عيون على بن أبى طالب :

يقول على رضي الله عنه :

« لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل ولا بالقصير ، شثن الكفين (عظيم الكفين) والقدمين ، ضخم الكراديس[١] طويل المسْرُبة[٢] إذا مشى تكفأ كأنما انحط من صبب[٣] ولم أر قبله ولا بعده » ، ويقول على أيضًا :

« ... من رآه بديهة هابه ، ومَنْ خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده » .

فى عيون عبد الله بن عباس :

ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

«كان أفلج الثنيتين ، وإذا تكلم رئى كالنور بين ثناياه » .

(١) الكراديس : رءوس العظام .
(٢) المسْرُبة : شعر الصدر .
(٣) صبب : مكان مرتفع .

Looloo
www.dvd4arab.com

فى عيون أبى الطفيل :

يقول أبو الطفيل رضي الله عنه :

«كان أبيض ، مليحًا مقتصدًا (أى متوسط الطول) ليس بالطويل ولا بالقصير ، متوسط الحجم ، ليس بالنحيف ولا بالجسيم » .

فى عيون أبى هريرة :

يقول أبو هريرة رضي الله عنه :

« كان رسول الله ﷺ أبيض ، كأنما صيغ من فضة ، رجِل الشعر » .

ويقول : « ما رأيت شيئًا أحسن من وجه رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه » .

* * *

وهكذا يتضح من خلال ما أجمع عليه واصفوه ممن شاهدوه وعاشروه يتضح أن الله (عزَّ وجل) أكرمه بما حباه من خلق طيب ؛ ليكتمل له بعد ذلك ما تمتع به من خلق كريم وعقل راجح الصورة المثلى للإنسان الكامل القادر على تحمل تبعات دين الله الخاتم الخالد .

* * *

٣

صاحب الخُلُق الكريم ﷺ

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾

Looloo
www.dvd4arab.com

عظيم الخُلُق قبل البعثة

تجمع كتب السيرة على أن رسول الله ﷺ كان يتمتع بمستوى راقٍ من الأخلاق الفاضلة قبل البعثة الشريفة ، ومنذ صباه ، وفى شبابه ، حتى لقد عرف بحسن الخلق قبل أن يعرف بالاسم واللقب ، فقد عُرِف بالأمين ، فإذا ذكر الأمين أدرك السامعون أن الحديث عن محمد بن عبد الله ، وكأنه لم يكن فى مكة أمين غيره ، كما اشتهر بالصدق فاقترنت بشخصه الكريم صفتا الأمانة والصدق ، فمن سمع اسمه عرف أنه الصادق الأمين ، كما عرف عنه الإخلاص والوفاء والرحمة وسائر الأخلاق الفاضلة .

وإن مقالة السيدة خديجة له حين عاد إليها مضطربًا بعد أن نزل عليه الوحى لأول مرة يشير إلى بعض مما عرف عنه من سمو فى الأخلاق ونبل فى الطباع .

قال لها :

« لقد خشيت على نفسى » . فردَّت عليه :

« كلا .. والله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل (أى الثقيل كالإنفاق على الضعفاء من الرجال والأيتام والأرامل والنساء) وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » .

هكذا كان عليه السلام قبل بعثته ، وهذه بعض الصفات الأخلاقية التى ذكرتها السيدة خديجة ولم تكن حصرًا بكل صفاته وإنما كانت تشير إلى البعض منها كى يطمئن على نفسه ، تريد أن تقول أن الخير لا يأتى إلا بخير .

وإن ما اقترن به من أخلاق فاضلة كان هو الدافع لسيدة نساء قريش السيدة خديجة ذات المكانة الرفيعة فى قومها وصاحبة الأموال الطائلة والتى عرفت بين الناس بلقبها الطاهرة إلى أن ترغب فى الزواج منه وتسعى إلى ذلك سعيًا ، وهو الفقير الذى سعى من قبل من أجل أن يعمل لديها فى تجارتها ، وذلك بعد أن رفضت خيرة المجتمع المكى الذين تمتعوا بكرم الأرومة وعراقة الأصل فضلاً عن الأموال الطائلة مفضلة أن تعيش بلا زوج ، ولكنها غيرت رأيها ، وعدَّلت مسار حياتها بعد أن التقت بأخلاق محمد عليه السلام .

Looloo
www.dvd4arab.com

شىء من أخلاقه

لقد عرف عن رسول الله ﷺ أنه كان نقى الثوب ، لين الكلام ، حسن الصوت نقيه ، لا يقول هجرًا ، ولا ينطق هذرًا ، يخاطب كل إنسان على قدر عقله ، يكلم كل قبيلة بما تعرفه ، إذا فرح غض طرفه ، ما رؤى ضاحكًا إنما كان يبتسم سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب ، ولا فحَّاش ، ولا عيَّاب ، يقابل السيئة بالحسنة ، يصل من قطعه ، ويعطى من حرمه ، ويعفو عمَّن ظلمه » .

ولقد تألقت فى سيرته مواقف أخلاقية تشير إلى كل صفات الخير وأخلاق النبل والبر التى قلما تتأتى لبشر .

إنه فى أمانته المثال الأكبر والنموذج الأوضح ، ويكفى أن أعداءه الذين يناصبونه العداء بكل الشراسة كانوا يحفظون عنده ودائعهم ويأمنون عليها عنده ، ولا يأمنون عند أهليهم وذوى قرباهم ، فلما هاجر إلى المدينة كلف على بن أبى طالب الذى بقى فى مكة أن يردها إلى أصحابها .

وإنه فى صدقه كان مضرب الأمثال ، فلم يستطع أعداؤه خلال حروبهم له أن يتهموه بكذب . ولو وجدوا عليه كذبة خلال مدة الصراع المرير لكانت فرصتهم قد واتتهم من أجل أن يهدموا دعوته من أساسها .

أمَّا رحمته فقد كانت لا نظير لها ، كان رحيمًا بالخلق كله . بالرجال والنساء ، بالصغار والكبار ، بالإنسان والحيوان ، وسائر الكائنات حتى الحشرات ، بالقريب والبعيد ، بمن يعرف ، ومن لا يعرف ، بمن تبعه ومن لم يتبعه ، بمن صادقه وبمن عاداه ، بل كان جل حزنه لأجل أعدائه الذين يحاربونه ويحاربون دعوته ، فكان يحزن لما ينتظرهم من عقاب ، فكان حرصه الأول هو أن ينتشلهم من أخطائهم رحمة بهم .

ولشدة حزنه لخوفه عليهم خاطبه ربه قائلاً :

﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا ﴾(١) ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾(٢) أى لعلك قاتل نفسك حزنًا بسبب عدم إيمانهم إشفاقًا عليهم ، فيطلب منه (عزَّ وجل) ألا يكلف نفسه هذا العناء فيقول (عزَّ وجل) فى سورة فاطر : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ .

وكان تواضعه بلا حدود ، فكان يجلس على الأرض والحصير والبساط ويؤثر جليسه بالوسادة التى تحته ، وكان يأكل مع الخادم ويطحن معه ، ويحمل بضاعته من السوق ، ويحلب شاته ويخصف نعله ويرقع ثوبه ، ويخدم نفسه ويقم بيته ، وذلك على علو قدره ورفعة شأنه وحرص الناس على خدمته وافتدائه بأرواحهم .

وكان زهده عظيمًا ، فما شبع ثلاثة أيام تباعًا من خبز البُر حتى فارق الدنيا ، كان يبيت الليالى المتتالية طاويًا ، لا يجمع فى بطنه بين طعامين ، وإن أكل لحمًا لم يزد عليه ، وإن أكل تمرًا لم يزد عليه ، رغم ما كان تحت يده من مال زوجته الثرية وخلفته له ، وحصته من الغنائم وكان كثيرًا .

وكان حازمًا فى عدله ، أعلَّم الناس أن عدل ساعة يعدل عبادة سنة ، ويغضب من أسامة بن زيد حين تشفَّع للمرأة المخزومية السارقة ، وجمع الناس وقال لهم : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ، وكان عظيمًا فى شجاعته ، يقول واصفوه أنه كان أقرب ما يكون عند العدو فى ميدان القتال ، ويقول الصحابة أنهم كانوا إذا اشتد الوطيس يحتمون برسول الله ﷺ .

وهكذا لو رحنا نعدد أخلاق رسول الله لاحتاج الأمر إلى أسفار وأسفار ولكن نشير إلى بعض من خلقه كنماذج وأمثلة .

(١) سورة الكهف آية (٦) .
(٢) سورة الشعراء آية (٣) .

Looloo
www.dvd4arab.com

يؤدبه ربه

إن هذا النموذج الأخلاقى الكريم الذى تمثل فى شخص رسول الله ﷺ والذى تجسدت فيه كل مكارم الأخلاق ونبل الطباع هو من إعداد الله (عزَّ وجل) ، فقد شمله (عزَّ وجل) برعايته وصنعه على عينه ، فلم يعبد صنمًا ولم يشرب خمرًا ، ولم يأكل قط مما ذبح على النصب ، ولم يحضر عيدًا للأوثان ، ولم يشارك فى لهو ، وإنما عرف بين قومه بالصلاح رغم انتشار الفساد ، واشتهر ﷺ بالخلق الرفيع رغم بذاءة الأخلاق وانحطاط السلوك ، وشهد له الجميع بالنبل وبكل ما هو كريم فى الطباع جميل فى الأخلاق .

لقد صانه الله ورعاه وأدبه فأحسن تأديبه فكان المثال العظيم للإنسان الكامل فى الأخلاق ، وكان مدرسة تعلم منها أصحابه نبل الخلق وكريم الطباع ، وكانوا يسألونه : من أدبك هذا الأدب ؟ حين يندهشون لما يشاهدون فكان ﷺ يقول :

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

إن الرسول إذ يبلغ للناس شرع ربه فهو مثال يحتذى فى سلوكه ، وقدوة لمن آمن به فى حياته ، ولذلك جعل الله (عزَّ وجل) من رسوله مدرسة يتعلم فيها الناس ما ينبغى لهم أن يتعلموه ، ويسترشدون بنوره ويهتدون بهديه .

ولقد تأدب فى هذه المدرسة العظيمة مدرسة رسول الله ﷺ تلاميذه وأتباعه ، الصحابة الكرام فكانوا مثالاً فى كل خير ، وقدوة فى كل صلاح ، فكانوا نجوم الهدى ومصابيح النور للناس فى كل مكان ، وكانوا حملة لواء الدعوة إلى أرجاء الدنيا ، ينشرون الإسلام بهديه وأخلاقه بين العباد .

خلقه القرآن

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها متحدثة عن أخلاق الرسول ﷺ بعد أن اقتربت منه وعايشته كزوجة : « كان خلقه القرآن » أى أن كل ما جاء به ذلك الكتاب العظيم من الهدى ودعا إليه من الأخلاق السامية والآداب الراقية والصفات الطيبة قد تجسد فى شخص رسول الله ﷺ ؛ إذ إنه كان ملتزمًا به بفطرته النَّقية ، وجبلته الطاهرة ؛ لذلك كان قرآنًا يمشى على الأرض ، وأصبح على من أراد أن يلتزم بالقرآن وخلقه أن يتعرف على خلق رسول الله ﷺ كى يقتدى به ويتأسى ؛ لأنه ﷺ كان يجسد القرآن سلوكًا وقولاً ، نطقًا وإشارة .

نبى الأخلاق

إن أبرز ما فى رسالة الإسلام أنها رسالة خلق ، حيث يبرز العنصر الأخلاقى واضحًا جليًّا فى كل ما جاء به من مبادئ وقيم ونظم ، وصولاً إلى تكوين الأمة المؤمنة ، التى تسعى إلى بناء عالم يسوده الخير والحق والعدل ، ولذلك أشار رسول الله ﷺ بقوله :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » فإصلاح المجتمع لا يكون فقط بالعبادات ، وإنما تتعاون العبادات مع الأخلاق فى بناء الشخصية السوية التى هى لبنة المجتمع الصالح القويم ؛ ولذلك يؤكد ﷺ على أنه جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، وأن ذلك أخطر ما فى رسالته ذلك أن الله (عزَّ وجل) قد بدأ الخلق بآدم عليه السلام ، وختمه بديانة الإسلام لذلك يقول ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ؛ لأنه استحق هذه المنزلة بقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

Looloo
www.dvd4arab.com

لأن كل نبى قد دعا إلى جانب من جوانب الأخلاق ولكنه ﷺ قد دعا إليها جميعًا لذلك فهو أتمها ، ويؤكد ذلك قول الله (عزَّ وجل) : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾ ولذلك فإن رسول الله ﷺ قد صار رحمة للعالمين ، يقول الله (عزَّ وجل) : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وبذلك صار رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة للأخيار الذين يرجون رضوان الله (عزَّ وجل) : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا ﴾ (الأحزاب – ٢١) .

وجعله الله نورًا يهدى به الناس فى كل زمان وفى كل مكان يقول (عزَّ وجل) : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﴾ .

وجعل الله طاعته ضرورة من أجل التأسى بخلقه يقول تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ . ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

وهكذا يتضح أن رسالته هدفها بناء الأخلاق فكان لابد أن يكون رسولها هو القمة فى الأخلاق ، وهكذا كان رسول الله ﷺ وصدق الله (عزَّ وجل) حين يصف هذا الخُلق فيقول :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾

٤

صاحب الذوق اللطيف

صلى الله عليه وسلم

Looloo
www.dvd4arab.com

النموذج الرائع

يجمع دارسو سيرة رسول الله ﷺ وحياته أنه الإنسان الذى توافر له أكبر قدر من الذوق أتيح لإنسان خلال تعامله مع الحياة ومع الناس ، هذا الذوق جعله فى الذروة من الكمال الإنسانى ، وجعله المثل الأعلى فى رقة المشاعر وفى أدب السلوك ، وكأنه صار النجم العالى الذى يتطلع إليه الجميع ويقتبسون منه ، وكأنه الشهاب الساطع فى سماء الإنسانية يهدى إلى كل الآداب الطيبة والسلوكيات الجميلة فى كل عصر . وأصبح كل من اغترف من نبع ذوقه غرفة مثلاً لمن حوله ، وقدوة لمن عرفه ، وعلمًا على كل جميل .

إن ذوقه قد بهر كل من درس حياته ، وإن كل مواقفه وسلوكياته لتترك الناس فى حيرة يتساءلون : أنَّى له كل ذلك ؟

إن كل سلوك سلكه فى أى موقف ، سواء كان فعلاً أو قولاً لا تتطلع عقول البشر إلى ما هو أجمل منه أو أكمل أو أطيب ، ولا يترك فى النفوس إلا الانبهار المقرون بالتعظيم والإجلال ، وكأن لسان الجميع يقول : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

إنه ﷺ يحسن الإحسان كل الإحسان فى كل لمواقف وفى جميع الحالات ، قد يوفق العظيم فى مواقف ترتبط بجوانب العظمة فى حياته ، وقد يصل إلى مرتبة الإعجاز مرَّة أو مرات فى مراحل عمره ، ولكنه أن يصل فرد واحد فى فن التعامل مع الحياة ومع الأحياء ، وفى جميع الأوقات ، وفى كل المواقف إلى مرتبة الإعجاز التى لا يكون بعدها أجمل أو أكمل أو أفضل فإنه لأمر يثير الانبهار المقترن بالإجلال .

إن محمد بن عبد الله وهو يتعامل مع الحياة ومع الناس بفطرته ، وهو ابن الصحراء ، وهو اليتيم الذى لم يتعلم من أب يعلمه ويؤدبه ، وهو الأمى الذى لم تتح له فرص التزود من الثقافة والمعارف ، وكل الظروف من حوله لا تساعد أحدًا على أن يتعلم أو يتصف بالرقة واللطف ، إن هذا الرجل ومن حوله هذه الظروف قد وصل فى أدبه ولطفه وذوقه إلى الحد الذى لا يمكن أن يكون بعده سمو أو كمال .

وإذا جاء زمان حاولت الإنسانية جمعاء أن تفخر بواحد من أبنائها فلن تجد رجلاً أوفى بالسمو والكمال من هذا الرجل ، وإذا كان الله (عزَّ وجل) قد اختاره رسولاً للبشر فهو قبل ذلك واحد من البشر ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، إنسان يسعى من أجل قوته وقوت مَنْ يعول ، إنسان يعيش صخب الحياة وأحداثها . فهو بشر والله اختار أن يبعث للناس رسولاً منهم ليكون القدوة أمامهم ، وقد بلغ رسول الله رسالة ربِّه ، ووجد فيه الناس المثال المنشود والأسوة الحسنة ، والقدوة الرائعة ، وشهد له الجميع بالذوق اللطيف فى التعامل مع الناس ، ومع الأحياء ومع الحياة .

لقد كان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لأقل تابعيه وأعظمهم ، وكان التواضع والعطف والصبر والإيثار والجود صفات ملازمة لشخص محمد ﷺ وجالبة له محبة من حوله ولذلك نال إجماعًا تاريخيًّا ونادرًا على تقديره وإجلاله من الذين عاصروه ، وأيضًا من الذين عاشوا من بعده ، ومرجع ذلك إلى ذلك اللطف الرائع فى تعامله مع الغير وذلك السلوك الرفيع مع الأحياء جميعًا ، فكانت حياته ﷺ هى النموذج الرائع والراقى للإنسان الفاضل الكامل .

www.dvd4arab.com

نماذج من الذوق الرائع

إن ذوق رسول الله العظيم ولطفه الرائع يتجلى فى كل مواقف الحياة وفى كل أحوالها وأوقاتها ؛ ولذلك هو أجل من أن يحاط به فى هذه العجالة ، ومع ذلك نحرم أنفسنا من إطلالة سريعة على بعض السلوكيات التى يتبدى فيها الذوق الجميل .

ذوق المظهر :

١ ــ كان ﷺ حريصًا على حسن المظهر من حيث الهيئة والزينة والنظافة والرائحة وما إلى ذلك من هيئة تطالع الناس وتترك الانطباع الحسن عند المشاهدة ، فكان ينتقى ثيابه ويحسن ترتيبها ، وكان يراعى التناسق فى الإطار العام للملبس ، وكان يحث أصحابه على ذلك فيقول : « أصلحوا رجالكم وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا شامة فى أعين الناس ؛ فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » ، وكان يقول : « إن الله جميل يحب الجمال ، نظيف يحب النظافة » ، ويقول : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

٢ ــ وكان ﷺ حريصًا على أن يقلم أظفاره ويقص شاربه ، ويخضب لحيته بالحناء ، ويسرح شعره ويعدل لحيته ويدافن شعره ، ثم يضع قناعًا فوق شعره ليحمى عمامته من الدهن ، وكان يأخذ معه فى سفره مشطًا ومرآة ، وكان ﷺ يحب التطيب بالعطر ليأنس له من حوله ، وكان لا يرضى لإخوانه أن تنبعث منهم رائحة كريهة فيقول ﷺ : « من أكل ثومًا أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مجلسنا » .

٣ ــ وكان ﷺ حريصًا على نظافة البدن ونظافة الأسنان وكان يكثر من السواك خاصة قبل الصلاة ، وأضاف إلى أركان الوضوء سننًا من أجل التأكيد على النظافة العامة للجسم ، وكان حريصًا على نظافة البيئة من حوله ، أى يحرص على النظافة بمعناها العام والذى يشمل كل ما يتعلق بالفرد والجماعة ، وجعل النظافة من الإيمان ، ونبه على التخلص من الأوساخ لأن القذارة تجافى الذوق الجميل .

٤ ــ وكان حريصًا على نظافة المكان ، فكان يعلم أصحابه فيقول : « إنّ الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم وساحاتكم ، ولا تشبهوا باليهود يجمعون أكباءهم(*) فى دورهم » ونظافة المكان تمتد فتشمل مع البيوت المساجد والمنتديات والأسواق وغيرها من الأماكن التى يقيم فيها الإنسان أو يتردد عليها .

٥ ــ كما كان ﷺ حريصًا على نظافة الماء ؛ لأنه أساس الحياة ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حيّ ﴾ . وكان ﷺ يقول :

« لا يبولن أحدكم فى الماء الراكد ، ثم يغسل فيه » . ويقول أيضًا : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز فى الماء ، وفى الظل وفى طريق الناس » .

(*) الأكباء : الأوراث والقمامة .

Looloo
www.dvd4arab.com

ذوق الجوهر :

مثلما حرص ﷺ على ذوق المظهر فإنه كان حريصًا على ذوق الجوهر ، وقد تجلى ذلك على النحو التالى :

حرصه على النظام لأن النظام المضطرب يتنافى مع الذوق الجميل ، وكان حرصه على النظام فى كل المواقف فهو يقول مثلاً داعيًا المصلين إلى الوقوف فى نظام : « إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج » حتى فى الحرب كان حريصًا على انتظام الصفوف وفى صفوف جميلة .

وكان حريصًا على مراعاة مشاعر الآخرين ، فإذا زار قومًا لا يستقبل بأيهم من تلقاء وجهه ولكن من أحد ركنيه ، ويقول : السلام عليكم .

وكان يوصى بالرفق فى كل الأمور لأن الرفق ما يكون فى شىء إلا زانه ، وما ينزع من شىء إلا شانه ، ومن يحرم الرفق يحرم الخير .

وكان يوصى بالحياء فيقول : « الحياء من الإيمان » ويقول ﷺ : « لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء » .

وكان يحب الأسماء الحسنة ، لذلك غير الأسماء التى توحى بالجفاء والقطيعة والحرب إلى أسماء ذات معانٍ جميلة ، فسمى (بنى غيان) بنى رشدان ، وسمى (حربًا) الحسن ، وسمى ماء (بئسان) ماء نعمان .

وكان ودودًا ينشر الألفة والود بين الناس ، ويؤكد أن المؤمن يألف ويؤلف ، ولذلك كان يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة وما صافح أحدًا بيده فيرسل يده منه حتى يكون الآخر هو الذى يرسلها .

وكان إذا لقى من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده يشاركه سروره ، وكان مع المصاب والحزين شريكًا شديد العطف حسن المواساة ، وكان فى أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس ، وكان دائم التفكير والاشتغال فى راحة مَنْ حوله وهناءتهم .

وكان يعلم أصحابه اكتساب ود الآخرين فيقول :

« ثلاثة يُصَفِّين لك وُدَّ أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه » .

وكان إذا فرح غض من طرفه ، ما تثاءب قط ، وكان يمزح ولا يقول إلا حقًا ، يقابل السيئة بالحسنة ، يصل مَنْ قطعه ، ويعطى من حرمه ، ويعفو عمَّن ظلمه ، لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، يصبر للقريب على الجفوة والمسألة ، لا يقطع على أحد حديثه ، يعظم النعمة وإن دقَّت .

كان يتفقد أصحابه ويسأل عنهم ، فإن كان غائبًا دعا له ، وإن كان شاهدًا زاره ، وإن كان مريضًا عاده .

لم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنًا ، ولا هدية مهما صغرت ، وما كان يتعالى فى مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يخصه بإقبال وإن كان بسيطًا أو حقيرًا .

يقول عنه علىُّ بن أبى طالب :

« كان أوسع الناس صدرًا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة ، كان يبدأ بالمصافحة ، ويكرم من دخل عليه بالقيام والاستقبال ، وربما بسط له ثوبه تعظيمًا له ، ويؤثره بالوسادة تحته ، ويعزم عليه بالجلوس إذا امتنع حياءً ، ويكنيهم بأحب أسمائهم إليهم تكرمة لهم .

Loolo

يخالط الناس بالجميل وبالبشر واللطافة وحمل الأذى ، والإشفاق عليهم ، والحلم والصبر وترك الترفع والاستطالة عليهم ، وتجنب اللفظة المؤاخذة ، مَنْ جالسه صابر حتى يكون هو المنصرف عنه ، ما وضع أحد فمه فى أذنه إلا استمر مصغيًا إليه حتى يفرغ من حديثه ويذهب ، مَنْ سأله حاجة لم يرده إلا بما عنده .

الناس عنده فى الحق سواء ، ما تحدث إليه متحدث إلا التفت إليه جميعًا ليبدى له الاهتمام والتقدير ، ولا يدخل عليه أحد وهو فى صلاته إلا خفف صلاته وسأل زائره عن حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته ، لا يثبت بنسره فى أحد .

يعرض عمَّن يتكلم بغير جميل .. يتغافل عمَّا لا يشتهى من الحديث »

كان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول كذا وكذا ، وإنما كان يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا وكذا .

كان إذا اشتغل بأمر أعطاه جل اهتمامه ، وإذا انصرف عنه لم يشغل ذهنه به .

كانت تشرق نفسه عند اليسر وعند العسر .

كان يداعب هذا ويمازح هذا ولكن لا يقول إلا صدقًا .

كان إذا عطس غطى وجهه ، وإذا ضحك ضحك حتى تبدو أسنانه ، وكان أكثر الناس تبسمًا ، وكان يقول : « بشروا ولا تنفروا » ، ويقول : « بشاشتك فى وجه أخيك لك بها صدقة » .

كان إذا استوقفه أحد ليكلمه لم يكن ينصرف إلا إذا انصرف من استوقفه ، حتى لا يظن أن الرسول يكره الوقوف معه .

كان إذا وفد إلى مجلس يجلس حيث انتهى به المجلس .

كان يكره أن يقوم الناس له . وكان يكره أن يتناجى اثنان ويتركا الآخر حتى لا يحزن .

كان أحسن الناس رضا إذا سر ، وإذا غضب لا يقوم لغضبه شىء ، وليس يغضب إلا لله .

كان يكره أن يبلغه أحد عن أصحابه شيئًا . كان يمشى وراء أصحابه ، وكان لا يمتاز عنهم بمجلس ، وكان يرفض أن يحملوا عنه متاعه ، ويقول : « صاحب الشىء أولى بحمله » .

* * *

هذه بعض السلوكيات الجميلة لرسول الله ﷺ وهى غيض من فيض ، وقليل من كثير يصعب حصره وذكره فى هذا المقام ، وهى إن عبَّرت فإنما تعبر عمَّا حظى به رسول الله من رقة فى الطباع ، وإن دلت فإنما تدل على أنه كان صاحب الذوق اللطيف الذى يجعله فى الذروة من الكمال الإنسانى .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

٥

صاحب الجسد الفتِيّ

صلى الله عليه وسلم

جسد فتِيّ

لقد أفاض الله (عزَّ وجل) على رسوله ﷺ من كرمه وعطائه الكثير الجليل ، فمنحه فى جسده الخلق الجميل والسمت الحسن ، ومنح هذا الجسد فضلاً عن ذلك القوة والفتوة ؛ حيث تمتع رسول الله ﷺ فى جسده بقدرات عالية وطاقات خارقة ، فلم يتوقف عطاء الله (عزَّ وجل) له عند جمال الشكل وإنما تعداه إلى قوة الجسد وفتوته ، خلافًا لما تلاحظه عند أولئك الذين كان لهم من جمال الشكل نصيب وافر فإنهم فى الغالب ما يصاحبهم رقة فى الجسد ولين فى العضلات ودعة فى تحمل الأعمال وأداء الواجبات ، ولكن الله (عزَّ وجل) جمع لرسوله بقدرته وفضله وحكمته الأمرين معًا ، فرزقه جمال الشكل وقوة الجسد وفتوته ، ولذلك نستطيع أن نقول أن رسول الله ﷺ تميَّز بأنه فضلاً عن تمتعه من الناحية الجسدية بأنه كان صاحب الخلق الجميل ، فإنه كان أيضًا صاحب الجسد القوى الفتىّ .

وقد كان لهذا الجسد القوى آثاره فى حياة رسول الله ﷺ من حيث قدرته على أداء الأعمال ، وتمكنه من حمل تبعات الرسالة وإنجاز ما تتطلبه من مهمات ، كان يتطلب أداؤها قوة فى التحمل ، وقدرة خارقة فى مواجهة الصعاب .

ونشير إلى بعض مظاهر هذه القوة التى تمتع بها رسول الله ﷺ فى جسده وأدائه وإنجازه للأعمال ومواجهته للصعاب ، من خلال تصفح سيرته العطرة المليئة بجليل الأحداث :

www.dvd4arab.com

١ ـ يواجه الجمل الجموح :

خرج رسول الله ﷺ وهو فى السابعة عشرة من عمره مع عمه أبى طالب فى رحلة إلى بلاد اليمن ، وشاهد جملاً متوحشًا جامحًا ، خشى منه الجميع ؛ لأنه أحدث ذعرًا فى القافلة ، فتقدم منه ﷺ رغم صغر سنه بالنسبة لمن كان معه فى القافلة ، وكبح جماحه وسيطر عليه وأمَّن الناس من جموحه وتوحشه .

٢ ـ يقتحم الماء :

واعترض القافلة أثناء الرحلة وادٍ مملوء ماء ، خافته الجماعة ، وهنا تقدم رسول الله ﷺ واثقًا من نفسه غير هياب ولا متردد ، واقتحم الماء الذى أحجم عن اقتحامه الجميع ، وقال لمن معه :

« اتبعونى .. اتبعونى » .

٣ ـ يواجه فحلاً من الإبل :

كان فى مكة فحل من الإبل قد جمح وتوحش وصار كالكواسر الضارية ، وفرَّ منه شجعان مكة وانسحبوا حتى لا يتعرضوا لأذاه ، فاقتحم محمد ﷺ على الجمل وجذبه بكل قوته ، فأخضعه وكبح جماحه ، والناس ينظرون إليه بكل دهشة وإعجاب ، فلم يكن أحد يتوقع أن يتقدم محمد إلى هذا المتوحش الضارى وهو الذى عرف عنه الهدوء والرقة فى معاملة الناس ، ولكنهم أدركوا على يديه أن طيبة القلب وحسن الخلق ورقة المشاعر ، لا يتنافى هذا جميعه مع الجسارة والإقدام ، لا سيما إذا كان قد اجتمع للفرد صحة البدن وقوة الجسد .

٤ ـ يواجه أبا جهل :

قدم رجل من أراش بإبل له مكة ، فاشتراها أبو جهل ومطله ثمنها ، فأقبل الأراشى ووقف على نادٍ من قريش ورسول الله ﷺ يجلس فى ناحية من المجلس ، وقال الأراشى :

يا معشر قريش .. مَنْ رجل يعينى على أبى الحكم بن هشام ، فأنا رجل غريب ، ابن سبيل وقد غلبنى أبو الحكم على حقى ؟ فقال أهل المجلس :

أترى ذلك الرجل الجالس ؟ (يقصدون رسول الله وهم يهزءون بالرجل لما يعلمون ما بين رسول الله وأبى جهل من عداوة) . اذهب إليه فإنه ينصرك عليه ، ويأتى بحقك ، فأقبل الأراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ ، وقال :

يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حقى ، وأنا رجل غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم من ينصرنى ويأخذ لى بحقى منه ، فأشاروا إليك فخذ حقى منه يرحمك الله ، فقام معه رسول الله ﷺ ، فلما رأى أهل المجلس ذلك أمروا واحدًا من المجلس أن يذهب ويتبعهما ليرى ماذا يصنع .

وذهب رسول الله ﷺ إلى بيت أبى جهل فضرب عليه بابه ، فقال أبو جهل :

من هذا ؟

قال : محمد .. اخرج إلىَّ ، فخرج وقد امتقع لونه ، فقال الرسول :

أعط هذا الرجل حقه ، قال أبو جهل : نعم .. لا يبرح حتى أعطيه حقه الذى له ، ودخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه .

لقد واجه رسول الله أبا جهل وتحداه رغم ما يتمتع به أبو جهل بين قومه بنى مخزوم من منزلة وما يتمتع به بين أهل مكة من مهابة ،

www.dvd4arab.com

وما كان أغناه عن أن يعرض نفسه لمزيد من المشكلات ، لا سيما أن غالبية أهل مكة كانوا يرفضون الإسلام ويشاركون أبا جهل فى الدين والعقيدة ، ولكن رسول الله ينصر الحق أولاً ، ويثق فى قوته ثانيًا ، فنصر الأراشى وأخذ له حقه .

٥ ـ يواجه ركانة :

كان ركانة بن يزيد بن هاشم بن عبد المطلب أشد قريش ، فخلا به رسول الله ﷺ يومًا فى بعض شعاب مكة ، وقال له رسول الله ﷺ :

يا ركانة .. ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه .

قال : إنى لو أعلم أن الذى تقوله حق لاتبعتك .

قال رسول الله ﷺ :

أرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم .

قال رسول الله ﷺ :

قم حتى أصرعك ، فقام إليه ركانة يصارعه ، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه وهو لا يملك نفسه ، ثم قال :

عد يا محمد ، فعاد ، فصرعه .

٦ ـ يواجه عمر بن الخطاب :

كان عمر بن الخطاب من أشد قريش على المسلمين ، وكان يتمتع بقوة جسدية هائلة ، ولما أراد الله به خيرًا بحث عن رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه ، فعلم أنه مع المسلمين فى بيت عند الصفا هو بيت الأرقم بن أبى الأرقم ومعه نفر من المسلمين ، فأخذ عمر سيفه ، فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ

وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، وقام رجل من الحاضرين من المسلمين فنظر من خلل[1] فى الباب فرأى عمر متوشحًا بالسيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ، فقال :

يا رسول الله .. هذا عمر بن الخطاب متوشحًا بالسيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب :

تأذن له يا رسول الله .. فإن كان يريد خيرًا بذلناه له ، وإن كان يريد شرًا قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ :

ائذن له ، ونهض حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته[2] ، أو بمجمع ردائه ، ثم جذبه جذبة شديدة ، وقال :

ما جاء بك يا بن الخطاب ؟! فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر :

يا رسول الله .. جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله .

لقد كان لعمر من قوة الجسد وقوة النفس ما يجعله فى القمة من المهابة من أهل قريش ، فكانوا يعملون له ألف حساب ، ولذلك تمنى رسول الله ﷺ إسلامه ليكون للإسلام عزًا ، واستجاب الله لدعاء وأمنية الرسول فكان إسلامه فارقًا بين عهدين فى تاريخ الإسلام ، عهد استتر فيه المسلمون بإسلامهم ، وعهد جهروا بعبادة الله بعد إسلام عمر ، ولثقته بقوته ونفسه عمل على إذاعة خبر إسلامه بين كفار قريش مستهينًا بهم .

(١) الخلل : الفرجة بين الشيئين .

(٢) الحجزة : موضع شد الإزار من الوسط .

Looloo
www.dvd4arab.com

وحين هاجر إلى المدينة لم يهاجر مستترًا كغيره ، وإنما هاجر لهارًا وعلنًا ، يقول على بن أبى طالب رضي الله عنه :

« ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا إلا عمر بن الخطاب » ، ذلك أنه حين هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه واتجه إلى الكعبة فطاف بها سبعًا متمكنًا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على تجمعات الكفار ، وقال :

« شـــاهت (قبحت) الوجـــوه .. من أراد أن يثكل أمه أو يُوتم ولده أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى » .

هذا الرجل القوى الذى ملأت أخبار قوته وشجاعته كتب التاريخ واجهه رسول الله بكل حزم وثقة اعتمادًا على قوته وشجاعته التى كان يثق فى أنها الأكفأ والأعظم .

* * *

٧ ـ يواجه أُبَىّ بن خلف :

كان أبى بن خلف من سادات قريش الذين أصروا على ضلالهم بل وقادوا المعركة ضد الإسلام وضد رسول الله ﷺ ، وكان لديه فرس فكان يعلفه ويبالغ فى إطعامه وإعداده بعد معركة بدر ، ويقول :

أقتل عليه محمدًا . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال :

بل أنا أقتله إن شاء الله .

فلما كان يوم أحد أقبل أبى إلى رسول الله ﷺ ، وهو يقول :

أى محمد .. لا نجوت إن نجا ، فقال القوم :

يا رسول الله .. أيعطف عليه رجل منا ؟

فقال الرسول :

دعوه ، فلما اقترب تناول رسول الله ﷺ حربة كانت مع الحارث بن الصمة ، ثم استقبله ، فطعنه من خلال فُرْجة كانت بين الدرع والبيضة ، فسقط عن فرسه وأخذ يتدحرج على الأرض ، فكُسر ضلع من أضلاعه ، وخُدش فى عنقه خدش غير كبير ، واحتبس الدم فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا : ما أعجزك .. إنما هو خدش .

فقال : والذى نفسى بيده لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعون ، فقالوا :

والله ما بك من بأس .

فقال : قد قتلنى والله محمد .

ومات أبَى فى الطريق أثناء عودة أهل قريش بعد غزوة أحد .

Looloo
www.dvd4arab.com

٨ ـ فى غزوة أحد :

تسبب الرماة الذين تركوا مواقعهم فى معركة أحد فى هزيمة المسلمين بعد أن كانوا قد اقتربوا من تحقيق النصر ، واضطربت صفوف المسلمين بعد أن أعمل فيهم الكفار قتلاً ، وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه الشجعان الأقوياء من أصحابه حتى اجتمع شمل المسلمين مرّة ثانية ، وواصلوا القتال وانسحب المشركون لكن بعد أن أصابوا المسلمين إصابات بالغة ، وبرغم ما أصيب به الرسول ﷺ من إصابات وجراح فإنه ما كاد يصل بجيشه إلى المدينة بعد انفصال الجيشين ، حتى عاد مرّة أخرى يطارد جيش الكفار حتى ولى مسرعًا نحو مكة .

٩ ـ فى غزوة حنين :

فى غزوة حنين انكشف المسلمون ولم تنفعهم كثرتهم ، وثبت رسول الله ﷺ بعشرة من أصحابه وانحاز إلى جهة اليمين ، وهو يقول :

هلموا إلىّ أيها الناس ، أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله .. وظهرت شجاعته وتبدّت قوته الفائقة التى لا نظير لها حيث اتجه قِبل الكفار وهو يقول :

أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .. وتجمع المسلمون بعد تشتت ، وما هى إلا ساعات قلائل حتى انهزم المشركون وانتصر المسلمون نصرًا مؤزرًا ، وحازوا على ما كان لدى العدو من مال وسلاح وظُعْن بفضل شجاعة رسول الله وقوته .

* * *

١٠ ـ يحرس المدينة :

رغم أعباء رسول الله الكثيرة ، ورغم حرص سائر المسلمين على تأدية واجبهم فى حراسة المدينة وتأمينها ، فإنه كان ﷺ الأكثر مبادرة وإقدامًا فى القيام بهذا الواجب .

ومما يروى عنه ﷺ أنه كان جالسًا ذات يوم فى مسجد المدينة بين الصحابة إذا بصيحات تأتى من خارج يثرب (المدينة) وصراخ بالاستغاثة ، وراع الناس واضطربوا ، إذ إنهم ظنوا أن قريشًا قد أخذت المسلمين بغتة ، وأسرع الناس خارج المسجد ، فأسرع ﷺ إلى بيته حيث امتشق سيفه ، وخرج فلمح فرس أبى طلحة فركبه وهو عرى ، وأسرع قبل الناس ، ثم عاد بعد أن استبرأ الخبر ، وهو يقول :

« لن ترعوا .. وجدناه بحرا (أى وجد الفرس سريعًا) » وأخبر الناس أنه لا توجد خارج المدينة غارة أو يوجد ما يهدد أمنهم .

١١ ـ فى حفر الخندق :

وتظهر قوة رسول الله ﷺ واضحة أثناء حفر الخندق حول المدينة لحمايتها من تهديد الأحزاب الذين تجمعوا لقتال المسلمين وغزو المدينة فى العام الخامس الهجرى .

يقول جابر رضي الله عنه[1] :

« إنا كنا نحفر فعرضت كدية شديدة[2] فجاءوا إلى النبى ﷺ ، وقالوا :

هذه كدية عرضت لنا .

(١) أصل القصة فى البخارى ومسلم .

(٢) صخرية قوية .

Looloo
www.dvd4arab.com

فقام رسول الله ﷺ وبطنه معصوب بحجر من الجوع ، وأخذ المعول وضرب الصخرة فعادت كثيبًا أهيلَ (ترابًا ناعمًا) » .

أى أن ما عجز عنه أقوياء الصحابة استطاع رسول الله ﷺ بعد أن استعانوا به أن يجعله أمرًا سهلاً . ولو كانوا يقدرون على تحطيم الصخرة التى اعترضت طريق الحفر ما شغلوا بها رسول الله ، وكان ﷺ عند حسن ظنهم .

١٢ ـ قوته فى عيون أصحابه :

كان الصحابة المعاصرون لرسول الله ﷺ يتعاملون معه ويدركون فضل الله عليه بما أسبغ عليه من قوة وفتوة ، لذلك كانوا يشعرون بالأمان أثناء وجوده معهم ، ويعبر عن هذه الحقيقة الصحابة رضوان الله عليهم ، فيقول البراء بن عازب ﷺ :

« كنا والله إذا احمر البأس نتقى به ، وإنَّ الشجاع منا الذى يحاذى به » يقصد رسول الله ﷺ .. رواه البخارى ومسلم .

ويقول على بن أبى طالب ﷺ :

« لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نذود(*) بالنبى ﷺ ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس بأسًا » .

(*) نحتمى .

٦

صاحب العقل الراجح

صلى الله عليه وسلم

Looloo
www.dvd4arab.com

تمهيد :

أكرم الله (عزَّ وجل) الإنسان بأن ميَّزه عن سائر المخلوقات بالعقل ، وبالعقل استحق أن يكون خليفته فى الأرض ، وصار جديرًا بأن يسود فيها ويسيطر على باقى المخلوقات .

ويتمايز الناس فيما بينهم بالعقل ، فالأرجح عقلاً هم الأكثر نضجًا ورقيًّا وكمالاً ، وهم القادرون على قيادة حركة الحياة والإفادة مما أودعه الله فى الكون من نعم ، وهم القادرون على مواجهة المواقف والصعاب ، وتلمس الحلول لما يعترض ركب الإنسانية من عوائق ومشكلات .

ولما كان رسول الله ﷺ هو المبعوث الذى انتظرته الدنيا طويلاً ليكون بلسمًا لجراحها وعلاجًا لمشكلاتها وقائدًا لحركتها نحو النضج والكمال ، والقدوة والأسوة للناس جميعًا ، فى عصره وإلى آخر الزمان ، فلقد رزقه الله العقل والفكر السديد .

ولقد عرف ﷺ منذ صباه الباكر ، ثم من خلال مسيرة حياته بنضج العقل وكمال الفكر وسداد الرأى ، وقد ظهر أثر هذا جميعه فى سلوكه مع الناس ومع الحياة ، فكان قومه يندهشون خلال تعاملهم معه لما اتصف به سلوكه من كمال وتصرفاته من حكمة ورأيه من سداد .

وهنا نشير إلى بعض مواقفه فى الحياة التى تؤكد هذه الحقيقة ..

* * *

مواقف تظهر العقل الراجح

١ ـ الانصراف عن عبادة الأصنام :

لم يساير رسول الله ﷺ قومه منذ صباه فى عبادة الأصنام إذ أدرك ﷺ أن الإنسان الذى يصنع إلهه بيديه ، ثم يخر له راكعًا ساجدًا متضرعًا ، يكون قد ألغى عقله وفكره . وأيقن أن ذلك أمر لا يتفق والمنطق ، وخالف قومه فيما ذهبوا إليه ، فكان رغم صغر سنه نشازًا بين قوم انكبوا على أوثانهم وأصنامهم يطلبون منها الشفاء والغناء والرضا والسعادة ، ويقيمون لها الأعياد والاحتفالات ، ويقدمون إليها القرابين ويذبحون الذبائح .

شذ رسول الله ﷺ عنهم فلم يعبد صنمًا ولم يحضر للأصنام احتفالاً ولم يشاهد لها عيدًا ولم يأكل مما ذبح لأجلها من ذبائح ، واتجه بعقله يبحث عن الحقيقة وينشد المعبود الحق .

إن هذا التفرد فى ذلك النهج كان مبعثه ما يتميز به من عقل راجح فكان يفكر ويزن الأمور ويحللها ، فيقبل الصحيح من الأفكار التى تتفق والعقل ويحكمها المنطق ويرفض ما سواها من أباطيل .

٢ ـ وضع الحجر الأسود فى مكانه :

ومما يؤكد ذكاء رسول الله ﷺ الفطرى ، وفكره الخلاق موقفه حين قامت قريش ببناء الكعبة قبل بعثته بنحو خمس سنوات ، وكان له من العمر حينئذ خمس وثلاثون سنة ، ولقد اختلفت بطون قريش على مَنْ يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه بعد أن ارتفع البناء ، واصرت كل قبيلة على أن تستأثر بهذا الشرف وازدادت حدة الخلاف بين الجميع وتوقف العمل ،

Loolod www.dvd4arab.com

وظهرت بوادر الشر ونذر الحرب ، وكان من أشد المتمسكين بوضع الحجر الأسود فى مكانه بنو عبد الدار ، وتحالف معهم بنو عدى ، وتعاهدوا على الموت حتى يحققوا هدفهم ، وأحضروا جفنة ووضعوا فيها دمًا ، وأدخلوا فيها أيديهم تعاهدًا وتحالفًا ، ولذلك سموا لعقة الدم ، وأصرَّ بنو عبد مناف على أنهم الأحق ، ثم تحالف بنو أسد وبنو عدى على أن يكونوا هم أصحاب هذا الشرف ، ومكث النـاس أيامًا لا يدرون كيف يكون الخروج من هذه الأزمة ، وفجأة ارتفع صوت أبى أمية بن المغيرة ، يقترح عليهم أن يحتكموا إلى أول مَنْ يدخل من باب المسـجد وليقبل الجميع حكمه ، وكان الداخل هو محمد بن عبد الله الذى اقترح أن يوضع الحجر الأسود فى ردائه ، ثم تشارك كل القبائل ممثلة فى رجـال منهم يحملون الثوب وبه الحجر الأسود ، ثم يضعه هو فى مكانه ، وبذلك انتهى الخلاف ، ونفذ الناس ما ارتآه ، وحل الوئام محل الخلاف ، ورفرف السلام من جديد على أهل مكة بفضل ذكاء رسول الله وحله للمشكلة حلاً عفويًا لكنه قائم على الذكاء وحضور البديهة .

٣ ـ تربيـة الرجـال :

استطاع رسول الله ﷺ بعد بعثته أن يقود الجماعة المسلمة نحو تحقيق الأهداف ونشر دين الله بكفاءة ونجاح ، كما استطاع بناء جيل يواصل أداء الأمانة وحمـل الرسـالة ، وشجَّع الكثيرين من الشباب على تحمل المسئولية ، وألقى إليهم بأعباء التوجيه والقيـادة والتنفيذ ، واستطاع بناء جيل تمكن من قيادة حركة الإنسانية نحو النور والهداية ورفع شعار الحرية والإخـاء والمساواة ، ويعتبر ذلك الإنجـاز أهم جوانب الإعجاز فى حياة

رسول الله ، لأن انهيار الدعوات وانتهاء الرسالات مرجعه فشل القائمين عليها فى إعداد الجيل الذى سوف يخلف القادة ، ولكن رسول الله استطاع أن يجعل من أبناء الصحراء أعلامًا يتسلمون الراية من بعده ، ويتجهون إلى أنحاء العالم فى نجاح دون أن تطيش الأيدى أو يختل التفكير أو تضيع المبادئ وتسقط المثل . وهذا من ملامح النبوغ العقلى عند رسول الله ﷺ .

٤ ـ لياقة التعامل :

القائد الناجح تتوافر لديه سمات القيادة ، ومن أهمها القدرة على تأليف الجميع وكسب ودهم وإقامة روابط معهم على أساس من الحب والتقدير ، ولقد بلغ رسول الله ﷺ فى ذلك الذروة ، فما كان أحد من الصحابة يأمل فى شىء أكثر من أن يحظى برضى رسول الله ﷺ وحبه ، حتى لقد قال خصمه قائد معسكر قريش أبو سفيان بن حرب :

« ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد لمحمد » .

وتعود مهارة كسب الأصحاب فى جانب كبير إلى النبوغ العقلى وتفتح آفاق القائد ومرونته ، فهذا جميعه يمنح الإنسان القدرة على التأثير والسيطرة ، فضلاً عن اللياقة فى التعامل مع الغير .

ولرسول الله ﷺ مواقف عديدة طوال عمره حافلة باللياقة فى التعامل مع أصحابه بأسلوب فيه الذكاء الذى يمكن من حبه فى قلوبهم .

من ذلك موقفه من الأنصار حين أعطى المهاجرين أكثر مما أعطاهم بعد موقعة الطائف (أى بعد فتح مكة) بسبب فقر المهاجرين لأنهم هاجروا تاركين أموالهم فى مكة ، فلما رأى عدم الرضا من بعض الأنصار قال :

www.dvd4arab.com

« أترضون أن يرجع الناس بالغنائم إلى بيوتهم وترجعوا برسول الله إلى بيوتكم ، لو سلكت الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادى الأنصار أو شعبهم » ، فأرضى رسول الله ﷺ فقراء المهاجرين كما أرضى الأنصار .

ومن ذلك أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة فى عمرة القضاء تبعته ابنة حمزة (الذى كان قد استشهد فى أحد) تقول : يا عم .. يا عم .

فتناولها على ﷺ وأخذ بيدها وقال لفاطمة رضى الله عنها :

دونك ابنة عمك حمزة ..

فاختصم فيها على وجعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة .

قال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمى .

وقال جعفر : ابنة عمى ، وخالتها تحتى .

وقال زيد : ابنة أخى .

فقضى بها رسول الله لخالتها ، وقال :

الخالة بمنزلة الأم .

وقال لعلى : أنت منى وأنا منك .

وقال لجعفر : أشبهت خَلْقِى وخُلقى .

وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا .

فحكم لجعفر وأرضى الجميع .. وهكذا كان ﷺ يسلك فى مواقف الحياة السلوك الذى ينم عن فكر راجح وذكاء متوقد ، ويتيح له ذلك جميعه حسن التعامل مع الأصحاب .

٥ ـ فراسة الأذكياء :

وتمتع رسول الله ﷺ بفضل عقله الراجح وذكائه الفائق بفراسة باهرة بارعة تجيد تحليل الواقع وتوقع المستقبل . وإن تاريخه ﷺ حاشد بالمواقف التى تؤكد هذه الحقيقة .. ونكتفى بذكر موقفين تجنبًا للإطالة :

(ا) الهجرة إلى الحبشة :

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة حين بالغ الكفار فى اضطهادهم ولم يعد من مفر إلا ترك مكة فرارًا بالدين إلى مكان آمن من الاضطهاد ، فاختار لهم الحبشة رغم أنه ﷺ لم يكن قد زارها من قبل ، وقال لهم : « إن فيها ملكًا لا يظلم عنده أحد » وقد صدقت فراسته لأنها فراسة الأذكياء . فقد كانت الهجرة ضرورة ، وكانت الحبشة هى المكان الأنسب ، إذ عاش فيها المسلمون فى ضيافة النجاشى آمنين ، حيث أحسن الرجل ضيافتهم رغم ملاحقة قريش لهم من أجل استرجاعهم .

(ب) موقفه من سهيل بن عمرو :

كان سهيل بن عمرو من أكثر أهل قريش شراسة فى عداء المسلمين والتحريض عليهم ، وبسبب قدراته البيانية الفائقة كان قادرًا على أن يبث العداء والكره للإسلام والمسلمين فى نفوس أهل مكة . فلما وقع أسيرًا فى غزوة بدر توقع الناس أن يأمر الرسول بقتله ، واقترح عليه عمر بن الخطاب أن يخلع ثنيتيه ، لا سيما أنه كان أعلم (مشقوق الشفة العليا) وبذلك يصير عاجزًا عن الخطابة ولا يقدر على التحريض ضد المسلمين ، ولكن رسول الله أبى ذلك ، وقال لعمر :

Looloo
www.dvd4arab.com

« لعلك تجده فى موقف يسرك وتحمده عليه » وقد صدقت فراسة رسول الله بعد وفاته ؛ إذ إنه وقف بين أهل مكة وسط طوفان المرتدين فى جزيرة العرب ، وقال :

« وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ، والله لقد علمت أن هذا الدين سيمتد امتداد شروق الشمس ، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت » ، ثم نصح أهل مكة قائلاً :

« كنتم آخر الناس إسلامًا ، فلا تكونوا أول مَنْ يخرج من الدين » . وقد استجاب أهل مكة لنصحه ، وصحت فراسة الرسول ﷺ وقال عمر : « صدق رسول الله فهذا موقف أحمد سهيلاً عليه » .

٦ ـ احتكام المسلمين إليه :

أمر الله (عزَّ وجل) المسلمين أن يحكّموا رسول الله ﷺ فيما يشجر بينهم من خلاف ، إذ إنه هو القادر على أن يزيل أسبابه ، والقادر على أن يتخذ من القرارات ما يتفق مع العدل فى الوقت الذى يزيل أسباب الخلاف ويقرب بين النفوس ويجمع الشمل ويوحد الصف ، يقول تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا ﴾ .

فرسول الله هو الحاكم العـادل بينهم ، والقادر على أن يتعرف على أسباب الخلاف بذكائه ، والقادر على الحكم فيه بعدله ، والقادر على أن يجمع ويؤلف القلوب بحكمته ، وإن الله (عزَّ وجل) بهذا الحكم ليلفت أنظار المسلمين إلى عظيم حكمة الرسول وإلى راجـح عقله ؛ كى يلتزموا بما يراه الرسول حفاظًا على وحدة الصف وتماسك الجماعة .

٧ ـ القدرة على التحليل والاستنتاج :

والقدرة على التحليل للمواقف والاستنتاج والتوقع بعد الدراسة من القدرات العقلية الفائقة التى تميز بها رسول الله ﷺ ، والمواقف التى تؤكد ذلك كثيرة ويكفى أن نشير إلى أحدها ، وهو قدرته على أن يتعرف على أعداد جيش المشركين فى معركة بدر قبل حدوثها . فقد أرسل ﷺ على بن أبى طالب والزبير بن العوام ليعرفا الأخبار قبل نشوب المعركة ، فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبنى الحجاج وغلام لبنى العاص السهميين ، فأتيا بهما إلى رسول الله وهو قائم يصلى ، ثم سألهما عن أنفسهما فقالا :

نحن سقاة لقريش ، بعثونا لنسقهم الماء فضرباهما لأنهما ظنا أن الغلامين لأبى سفيان ، فقال الغلامان :

نحن لأبى سفيان فتركاهما ، ولما أتم الرسول صلاته قال :

إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله إنهما لقريش ، ثم قال لهما :

أخبرانى عن قريش .

قالا : هم وراء هذا الكثيب .

فقال لهما : كم عددهم ؟

قالا : لا ندرى .

قال : كم ينحرون كل يوم ؟

قالا : يومًا تسعًا ، ويومًا عشرًا .

قال : القوم بين التسعمائة والألف .

وقد تبين بعد ذلك أن عدد جيش قريش كان تسعمائة وخمسين رجلاً .

Looloo
www.dvd4arab.com

٨ ـ النبوغ الإدارى :

لقد كان رسول الله ﷺ ذا ملكات إدارية رفيعة قائمة على التفكير الواعى الذى يمارسه عقل كبير وذهن متفتح ، يدرك قيمة النظام والاختصاص فى العمل وأمانة التبعة ، وكان حريصًا على وحدة الجماعة من خلال التفافها حول قائد ؛ لذلك أوصى بالرئاسة حين القيام بعمل جماعى ؛ فيقول عليه السلام : « إذا خرج ثلاثة فليؤمروا أحدهم » . كما كان حريصًا على أن يعمل القائد على كسب حب منْ معه ، فيقول : « أيما رجل أم قومًا وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه » .

وكان حريصًا على أن يتم اختيار القائد بحيث يكون أفضل القوم ، فيقول ﷺ : « أيما رجل استعمل رجلاً على عشر أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين » .

ويؤكد أن قيادات العمل محاسبة من قبل الله ، فيقول : «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته » .

وقد سجل التاريخ لرسول الله ﷺ نجاحًا باهرًا فى قيادته لمجتمعه ، إذ كان ذا إحاطة واسعة ببلاد الجزيرة العربية وبالعالم المحيط به ، فكان إذا خرج للغزو يبدو ملمًّا بالطريق الذى يسير به وما فيه من قبائل ودروب وآبار ماء ، حتى الأماكن التى لم يكن قد زارها من قبل كان يعرف أخبارها وأسرارها وذلك بسبب حسن استماعه ، لأنه كان يستمع أكثر مما يتكلم ، والمعروف أن حسن اتخاذ القرار لا يكون إلا بعد إحاطة تامة بكافة الجوانب التى ترتبط بموضوع القرار .

وفى عام الوفود حين استقبل ﷺ وفود القبائل فى العام التاسع الهجرى كان يستقبلهم وهو يعرف كل شىء عنهم وعن بلادهم ، وحين هاجر إلى يثرب كانت مجرد واحات متفرقة فى سهل فسيح يطلق عليه سهل المدينة معرب عن السريانية(*) (مدينتا) ، أى مساحة واسعة من الأرض يسكنها

(*) من مقال للدكتور حسن مؤنس فى مجلة الهلال سبتمبر ١٩٧٨

قوم تجمعهم ظروف ومصالح خاصة ، وكانت تتناثر فى هذه المساحة الواسعة واحات منعزلة ذات حصون وبينها مساحات من الأرض خالية من الناس ومن الحياة تسمى أرضًا غامرة تفصل ما بين التجمعات السكانية . وكان لرسول الله الفضل فى تحويل هذه التجمعات إلى مدينة .

لقد أنشأ مسجده ، ثم بدأ فى تحويل هذه الواحات المتناثرة والفراغات الهائلة إلى مدينة بأن شق طريقًا من المسجد غربًا حتى جبل سلع فى الشرق ، ثم اختار موقع البقيع ليكون مدفنًا للمسلمين ، ومهَّد الطريق إليه من المسجد فصار بالمدينة طريق واسع يمتد بين شرقها وغربها ، ثم مهد طريقًا من الشمال إلى الجنوب ، ووزع المساحات الخالية على الصحابة كى يبنوا بها دورهم ، وحث الناس على الاستقرار ، وشجعهم على البناء والتعمير والزراعة وإتقان الأعمال ، فلم يمض إلا وقت قليل حتى صارت هذه الواحات المتناثرة مدينة رائعة التخطيط والعمران تضم المجتمع الذى قاده رسول الله ﷺ بكفاءة ومقدرة من خلال مجموعة الاتفاقات والمواثيق بين أهلها المسلمين (الأوس والخزرج) فانتهى عهد الصراع بينهم وبدأ عهد الحب ، ثم من خلال مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حيث تحقق المزيد من الترابط والتلاحم بين مجتمع المسلمين ، كما تم إبرام المعاهدة بين المسلمين واليهود كشركاء فى مجتمع المدينة من أجل تسيير الحياة بها وحمايتها من الأخطار الخارجية ، وكانت هذه المعاهدة بمثابة دستور للمدينة ، ورغم تضاعف أعداد سكان المدينة بسبب الهجرة إليها ، ورغم الحصار الاقتصادى الذى فرضه المشركون عليها والصراع العسكرى الطويل بين مكة وحلفائها وبين المسلمين ، فقد قاد الرسول ﷺ ، حركة الحياة بها بكفاءة إدارية عالية حققت اجتيازًا للعقبات فلم تحدث اختناقات أو أزمات اقتصادية ، وتم قيادة الحياة المدنية بنجاح ، كما تم قيادة الصراع المسلح أيضًا بنجاح حتى تحققت أهداف الجماعة ورفرفت راية النصر وأعلام الإسلام على سائر الأرجاء .

Looloo
www.dvd4arab.com

٩ ـ النبوغ السياسى :

وكان رسول الله ﷺ ذا قدرات فائقة فى التعامل مع الأحداث فى شتى المواقف وتتبع حركة الدعـوة وما ارتبط بها من قرارات كانت القمة فى حسن التصرف والقدرة فى التدبير .

وبيان ذلك يحتاج إلى إطالة الحديث ، لكننا نكتفى بالإشارة إلى واحد من أهم المواقف الذى يغنى عن غيره ونعنى به صلح الحديبية ، يقول الأستاذ عباس محمود العقاد(*) .

« ... ففى عهد الحديبية تجلى تدبير محمد ﷺ فى حسن سياسة خصومه وسياسة أتباعه ، وفى الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود .. »

ونشير إلى بعض ملامح العبقرية فى هذا المسلك على النحو التالى :

١ ـ دعا جميع القبائل إلى الحج ؛ مسلمين وغير مسلمين ، تأكيدًا لتعظيم المسلمين للبيت كما يعظمه كل العرب .

٢ ـ حين وصل إلى (ذى الحليفة) أحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً ، وساق الهدى معه سبعين بدنة .

٣ ـ تفادى رسـول الله الحرب مع جيش قريش الذى خرج لملاقاته وتفادى سفك الدماء فى الأشـهر الحرم ، وقال : « أمن رجل يخرج بنا إلى طريق غير طريقهم التى هم بها » فدلهم رجل على طريق آخر حيث استقروا فى الحديبية .

(*) عبقرية محمد للأستاذ العقاد .

٤ ـ عند تحرير عهد الحديبية تحمـل رسول الله تعنت ممثـل قريش سهيل بن عمرو الذى رفض أن يبدأ العهد بسم الله الرحمن الرحيم ، كما اقترح رسول الله ، وأمر رسول الله أن يكتب (باسمك اللهم) كما أراد ، ورفض أن يكتب محمد رسول الله ، فكتب محمد بن عبد الله ، وأقر سهيلاً على مطلبه ، فيعيد رسول الله إلى قريش من جاءه مسلمًا ، أمَّا من جاء قريشًا من قبل المسلمين تاركًا دينه فتقبله قريش .

وتضمن الصلح شروطًا أخرى منها :

(ا) من أحب محالفة محمـد فلا جناح عليه ، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه .

(ب) يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا فى العام القادم ، فيقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ولا سلاح غيرها .

ولقد تضايق كثير من المسلمين لقبول رسول الله هذه الشروط ولتحمله تعنت سهيل بن عمرو ، وظن عمر بن الخطاب أن المسلمين أعطوا الدنيّة فى دينهم ، وواجه رسول الله برأيه ، ولقد أكدت الأيام أن ما ظنه المسلمون خسارة كان مكسبًا كبيرًا . وبينت حقائق ظهرت لهم مع الأيام وظهر معها نبوغ رسول الله السياسى ، ومن هذه الحقائق :

١ ـ مَنْ ترك المسلمين وعـاد إلى قريش كان شرًا أراح الله المسلمين منـه .

٢ ـ مَنْ ترك قريشًا مسلمًا ورفضه المسلمون صار شرًا بالنسبة لقريش ؛ حيث تجمع هؤلاء وقطعوا طريق تجارتها ، فالتمست قريش أن يقبلهم رسول الله .

www.dvd4arab.com

٣ ــ كان عقد الهدنة أول اعتراف من قريش بالدين الجديد ، وكانت تزعم من قبل أن المسلمين مارقون من أهلهم خارجون عليهم ، فكان لهذا الاعتراف أثره الأدبى بين قبائل العرب لمكانة قريش بين العرب ، فصارت القبائل أكثر استعدادًا لتفهم الإسلام والاستجابة لدعوة الرسول ﷺ .

٤ ــ كانت الهدنة فرصة للمسلمين كى يتصلوا بأهلهم وبغيرهم ، وأتاح لهم ذلك نشر دينهم حتى إن عدد المسلمين تضاعف خلال عامين بعد عقد الهدنة .

٥ ــ كانت الهدنة فرصة للتفرغ للقضاء على اليهود الذين كانوا يتربصون للإسلام فى خيبر .

٦ ــ أتاحت الهدنة الفرصة لمخاطبة العالم الخارجى ؛ لذلك أرسل رسول الله ﷺ إلى ملوك العالم رسائله فى شهر المحرم من العام السابع الهجرى .

٧ ــ أتاحت الهدنة الفرصة لنشر الإسلام خارج مكة والدعوة إليه فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ؛ حيث أرسل رسول الله الرسل والدعاة إلى القبائل من أجل الدعوة إلى الإسلام .

لذلك يرى كُتابُ السيرة أن مسلك رسول الله ﷺ فى الحديبية من أعظم الأعمال التى تمت والتى تؤكد براعة الرسول فى التعامل مع سائر الأحداث وفى شتى المواقف بوحى من فكره السديد وعقله الراجح ، حيث كان ذلك هو السبيل إلى فتح مكة وارتفاع راية الإسلام فى سائر الأنحاء .

١٠ ــ النبوغ العسكرى :

إن المجال العسكرى من المجالات التى يظهر فيها توقد الذهن وعمق الفكر وحضور البديهة ، والقدرة على اتخاذ القرار الصائب فى مواجهة المواقف الحرجة ، فتحقيق النصر لا يعتمد فقط على شجاعة القلوب وقوة الأجساد وإنما يحتاج أيضًا إلى نبوغ العقل وعمق الفكر الذى يقود إلى حسن التصرف فى أحرج اللحظات .

وإن استعراض مواقف الجهاد والحروب التى خاضها رسول الله ﷺ لتؤكد تميزه الهائل بالعقل الراجح والفكر العميق ، ونشير إلى بعض المواقف :

(ا) فى موقعة بدر خرج فى تكتم حتى إنه أمر بقطع الأجراس فى أعناق الإبل ، ونزل على أقرب بئر من المشركين (بئر بدر) ، ثم ردم ما سواه من الآبار ؛ فيشرب المسلمون ويظمأ المشركون وسط صحراء قاحلة ، واستعان باستطلاع ناجح للتعرف على قوة الأعداء فى الوقت الذى كان يثير حمية العقيدة فى القلوب . ولم يغفل ﷺ استشارة الصحابة والأخذ برأيهم .

(ب) فى غزوة أحد استعان ﷺ بانحدار جبل أحد ليكون فى ذلك حماية للمسلمين من الخلف ، وجعل ميدان المعركة فى السفح المنبسط أمامه ، ثم كلف خمسين من الرماة أن يقفوا على التلال المتقطعة على الجبل ، خوفًا من أن يتسلل منها الفرسان من جيش عدوه المعروفين بالخبرة والمهارة ، وأمرهم الرسول ألا يغادروا مواقعهم حماية لظهور المسلمين حتى يرسل إليهم ، وقال :

« إن رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدافعوا عنا » .

www.dvd4arab.com

كان هـذا هو فكر الرسول ﷺ ، وكانت هـذه تعليماته ، وتحقق للمسلمين النصر فى بداية المعركة ، لكن مخالفة الرماة لأوامره كانت سببًا فى الانتكاسة يوم أحد .

(ج) وفى غزوة الأحزاب أخذ رسول الله ﷺ برأى سلمان الفارسى ، وتم حفر الخندق فى مواجهة جموع المشركين التى ألبتهم قريش لحرب المسلمين ، فكان المسلمون أول من حفر الخنادق فى بلاد العرب ، وتم حفره من الجهة الشمالية من المدينة ، وهى الجهة التى لا تحميها البيوت ، وجعل للخندق أبوابًا عهد بحمايتها إلى جماعة من المسلمين ، وتجمع المسلمون خلف جبل سلع ، والخندق أمامه يمتد من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية ، وعندما شاهد المشركون موقف المسلمين الحصين انهارت معنوياتهم ، وقالوا هـذه مكيـدة ما كانت العرب تعرفها ، واستغل رسول الله إسلام نعيم ابن مسعود الذى كان صديقًا لليهود وصديقًا لقريش استغلالاً ذكيًا فى إحداث الوقيعة بين الطرفين ، ولما أدركت قريش سوء موقفها انسحبت ومعها الأحزاب منهزمين .

(د) وفى فتح مكة اتخذ رسول الله من التدابير ما يجعل قريشًا تؤخذ على غرة ، حيث كتم رسول الله الأمر عن أصحابه ، وحين سأله بعضهم عن وجهته قال : « حيث يشاء الله » ، وحين اقترب من مكة ـــ وكان الوقت ليلاً ـــ أمر أفراد الجيش بالتفرق والانتشار وإشعال أكبر قدر من النيران حتى يبدو عددهم كثيرًا ، مما يجعل أهل مكة يدب اليأس فى قلوبهم ، ثم استقطب إليه قائد المشركين أبا سفيان وجعل له شيئًا ، من الفخر لا يخسر

معه المسلمون شيئًا ولكن يؤدى إلى انعزال قائد الأعداء عن جيشه فمن دخل داره كان آمنًا ، وكذلك من دخل أية دار .

ثم كان أسلوبه الراقى فى التعامل مع أهلها والذى اتصف بالذكاء والحكمة ؛ مما سهل انتشار الإسلام فى مكة ، وجعلها حصنًا من حصونه بعد أن كانت مركزًا لحربه .

(هـ) وفى حصـار الطائف استعمل رسـول الله ﷺ الألغام مستعينًا بالحسك الشائك ، وهو نبـات ورقـه يشبه ورق الرجلة ، وتعلق ثمرته بصوف الغنم ، وضع به قطعة حديد ذات شعب ، وطرحها فى الأرض فكانت تعطب حوافر الخيل وأقدام المشاة ، ونثر هذا الحسك حول الحصن وحول المعسكر الإسلامى ، فكان ذلك البداية لفكرة الأسلاك الشائكة التى ظهرت فى العصور الحديثة .

* * *

إن رسول الله ﷺ رغم أنه ابن الصحراء ولم يدرس العلوم العسكرية فى الأكاديميات العسكرية أو المراكز المتخصصة ، كانت له رؤى ونظريات فى علم الحرب ما زال أمهر القواد حتى فى العصور الحديثة يتبعونها فى حروبهم .

لقد كان من نهجه فى هذا المجال أن الهجوم خير رسيلة للدفاع ، وأن القضاء على القوة العسكرية للعدو يجب أن تتم فى أسرع وقت ممكن ، فكان يبادر إلى الهجوم على العدو قبل أن يستكمل استعداده ، وكان حريصًا على انتهاز الفرص المناسبة واختيار الموقع الأنسب ، وكان حريصًا أيضًا على تهديد وإضعاف قـوى العـدو الاقتصادية والتأثير فيها ، وإضعاف القوى

المعنوية بإحداث الوقيعة بين صفوف الأعداء وتفريق شملهم ، وكان يحسن الاستطلاع ويلم بالمعلومات الكافية عن عدوه قبل بداية المعركة .

وكان يعتمد كثيرًا على القوة المعنوية فى جيشه ؛ لذلك كان يشترط توافر الرغبة فى نفوس المجاهدين ، ولا يكره أحدًا على الاشتراك فى القتال ، وكان يشرك كبار الصحابة فى مجلس حربه يستشيرهم ويناقشهم ، وكان يتخير قواده بمهارة ممن تتوافر فيهم سمات القيادة ويزودهم بوصاياه ، وغير ذلك من السلوكيات التى اتبعها رسول الله رغم أنه لم يكن فى الأصل قائدًا عسكريًا ، ولكنه النبوغ الذى حباه الله فى كافة المجالات تأكد أيضًا فى المجال العسكرى كمظهر من مظاهر تملك العقل الراجح .

٧

صاحب البيان الرائع

صلى الله عليه وسلم

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصاحة والرسالة :

الفصاحة تعنى سلامة الألفاظ من الإبهام والغموض وسوء التأليف ، فنقول عن الرجل أنه قد فصح لسانه إذا خلص مما يشوبه أثناء حديثه فانطلق لسانه بكلام فصيح صحيح ، فهو يحسن التعبير ويمتلك اللسان الطلق الذى يضمن لصاحبه إجادة الكلام وحسن البيان .

والفصاحة والبيان من الأمور الجوهرية بالنسبة للرسل الذين يبلغون رسالات الله للناس ؛ لأن ذلك يمكنهم من التبليغ وحسن مخاطبة الناس على اختلاف مداركهم ومستوياتهم فى الفهم ، ولذلك فإن الله (عزَّ وجل) يعد رسله لأداء هذه المهمة الجليلة ، ومن أبرز مجالات هذا الإعداد أنه يؤدبهم فيحسن تأديبهم ، ويملكهم البيان القوى والإجادة فى التعبير .

وإذا كانت تلك المهارة والقدرة ضرورية لكل الرسل ، فإنها كانت أكثر ضرورة بالنسبة لرسول الله الذى بعث إلى العرب الذين تميزوا بالفصاحة ، فكانت لها فى حياتهم الأثر الواضح . فاهتموا بها وبأربابها ، وجعلوا للأدب أسواقًا رائجة ، يحتشدون بها ويقصدونها من سائر الأنحاء ، وكانوا يجلون أرباب البيان ويتخذون أروع الأقوال وأحسن الأشعار ليدونوها على الكعبة تقديرًا وتشريفًا .

قوم هذا حالهم لا بد أن يكون الرسول إليهم فى الذروة من الفصاحة ، ولذلك اختار الله رسوله وأعده فكان أفصح العرب لسانًا وأبلغهم قولاً وأجملهم بيانًا وأعذبهم حديثًا ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببديع الحكم وعلم ألسنة العرب . فكان يخاطب كل قبيلة بلغتها ، ويكلم كل أمة بلسانها ، ويباريها فى بلاغتها ، يقول ﷺ : « أوتيت جوامع الكلم ، واختصرت لى الحكمة اختصارًا » ويقول أيضًا :

« أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، وربيت فى بنى سعد » .

ولم يكن حديثه ﷺ عن فصاحته حديثًا مبعثه الفخر والمباهاة ، وإنما كان ذلك على سبيل الحقيقة والوصف والتقرير ، ولقد كان الصحابة يعجبون لجمال بيانه ، وقدرته على الحديث مع كل قبيلة بلسانها رغم أنه لم يسبق له الإقامة بينهم أو التعامل معهم ، وكانوا يسألونه عن سر ذلك فكان ﷺ يقول : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ؛ إذ إن فصاحته كانت فضلاً من ربه حتى يكون ذلك من الوسائل التى يستعين بها فى تعليم الناس وإرشادهم إلى صراط الله العزيز الحميد .

مظاهر البيان الرائع :

لقد كان رسول الله ﷺ فى دعوته الناس إلى الله والعمل على هدايتهم حريصًا على إقناعهم والتأثير فيهم فكان لا يقيم بينه وبين الناس حاجزًا من اللفظ الغريب أو المعنى البعيد .

لقد كان ﷺ حريصًا على أن يصل المعنى إلى الناس كل على قدر فهمه ، لذلك كان إذا تكلم كان حديثه مفصلاً مبيَّنًا ، يعده العاد ويفهمه من سمعه ، ولذلك كان أحيانًا يعيد الكلمة ثلاث مرات إذا اقتضت الضرورة ذلك ، حتى يعقل الجميع ويفهموا .

ولقد أثر عنه أنه كان يبغض التكلف والاغترار ؛ بالبلاغة ، فكان يقول :

« إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة(*) » .

وكانت له القدرة على أن يجعل الناس يستوعبون مقالته على تباينهم فى الفهم وحظوظهم من العقل ، تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : (كان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه) . لذلك لم يكن ﷺ يكثر من القول كثير السرد وإنما كان بيِّن الكلام بليغه ، وقد خلا كلامه من الحشو والتكرار والزيادة حتى لا يتشتت ذهن سامعه ، وكان ﷺ يتصرف مباشرة إلى ما يريد أن يبلغه ، ذلك أن كثرة الكلام تنسى بعضه بعضًا

(*) الباقر : هو المتوسع فى العلم .

Lotus www.dvd4arab.com

كما عرف عنه ﷺ أنه كان قليل الكلام فى حياته الخاصة والعامة حتى لا يسمع منه الناس إلا الضرورى الذى يسهم فى تبليغ الرسالة ، وكان إذا اضطر ﷺ للتوكيد فإنه كان يلجأ إلى تكرار اللفظ بعينه حتى يعقل عنه الناس ويفهموا مراده ، لكن بلا زخرف أو حيلة أو حشو أو تكرار أو زيادة ، وذلك فى أداء رائع يأسر العقول ويمتع النفوس ، وكان ﷺ يقول :

« جمال الرجل فى فصاحة لسانه »

نماذج من البيان الرائع :

إن ما أثر عن رسول الله ﷺ من أحاديث ومواعظ وخطب ليعبر عن حقيقة أكيدة هى أنه تملك زمام البلاغة ، فكان صاحب أجمل بيان ، فكان ذلك جميعه هو المثل الأعلى لفصحاء العربية فى كل العصور يتعلمون منه الأداء القوى فى التعبير ويتخذونه نموذجًا يحتذون حذوه .

وإن من أراد أن يقدم نماذج من قوله الرائع الفصيح لتتملكه الحيرة ؛ لأنه يصعب عليه أن يختار . فكله فصيح جميل رائع .

ومع ذلك نشير إلى بعض من أقواله :

يدعو ﷺ إلى القناعة فيقول :

« ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » .

ويحث على فعل الخير ، فيقول :

« اليد العليا خير من اليد السفلى » .

ويقول عن خيار الناس :

« الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إن فقهوا »

ويقول : « خيركم خيركم لأهله »

ويقول : « الدال على الخير كفاعله »

ويقول : « المرء بخليله فلينظر أحدكم من يخالل »

ويقول : « المسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده » .

ويقول : « من تواضع لله رفعه » .

ويقول : « الرجل فى ظل صدقته حتى يقضى بيت الناس » .

ويقول : « العلماء أمناء الله على خلقه » .

ويقول : « المؤمن مَنْ أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم »

ويقول : « إن ذا الوجهين لا يكون وجيهًا عند الله »

ويقول : « ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة »

ولرسول الله ﷺ سجع كحلية الذهب كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد الذى اختار أن يمثل له بقوله ﷺ (*) .

« ... إن الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ، ومنعًا وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .

ومن سجعه الجميل رسالته التى أرسلها إلى أبى سفيان كبير مكة قبل إسلامه ، وكان قد طلب فى رسالة له نصف نخل المدينة وهدَّد المسلمين فكتب إليه الرسول :

« وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم فوالله ما لكم عندى جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح . فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب السهام وخراب الديار وقلع الآثار .. »

(*) « عبقرية محمد » لعباس العقاد .

www.dvd4arab.com

وله ﷺ كلام يمتلئ بصـــور تشبيهية وتمثيلية فريدة ، تزخر بالتعبير الرائع والبيان البليغ الناطق . مثل قوله :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه » فالصورة تشبه جماعة المسلمين فى تآزرهم وتقوية بعضهم بعضًا بالبناء المتين المكين . وقوله :

« أصحابى كالنجـــوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » فهو هنا يشبه الصحابة بالنجوم ، فمن اقتدى بهم بأن نهج نهجهم صار على هدى من أمره ، كمن يسير فى الصحراء بالليل فعيونه معلقة بالسماء كى يهتدى بنجومها فلا يضل .

وقوله : « وعد المؤمن كأخذ اليد »

أى إن تعهد المؤمن القيام بأمر هو تعاهد لابد من الوفاء به .

هذه نماذج محدودة ويسيرة من أدب الرســـول الذى نلمح فيه فصاحته الجميلة وبيانه الرائع ، ومن شاء أن يستزيد يطالع كتب الأدب والسيرة يجد زاد العقل ومتعة الروح .

مقومات فصاحته :

لقد اكتمل لرسول الله ﷺ كل المقومات التى تجعله يتبوأ تلك المكانة فى عالم البيان فهو قرشى واسترضع فى بنى سعد فضلاً عن تمكن حبه من القلوب ، فكان كلامه ينفذ إلى العقول والأرواح بلا جهد أو حيلة فى الوقت الذى كانت تتجه العقول والأسماع متشوقة يحدوها التقدير والإكبار لشخصه العظيم .

وأتيح له أن يكون مضمون حديثه قويًا فهو لا ينطق عن الهوى ، وإنما وحى من قبـــل الله (عزَّ وجل) يوحى ، فكان حديثه نورًا ينير ، وهداية ترشد ، وكان قادرًا على أن يصوغ وحى الله باللغة القوية الفصيحة .

وكان قادرًا على النطق السليم ، حيث أجمعت الروايات على تنـــزيه نطقه من عيوب الخروج ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها فى أحسن موقع ، وهذه هى فصاحة اللسان ، وذلك فضلاً عما تمتع به من فصاحة الكلام ، وكان رسول الله ﷺ ذا صوت محبوب ، وكان ترتيبه لكلامه ترتيبًا مأنوسًا فضلاً عن نطقه الجميل ، فيكون مجمل عطائه كلامًا جميلاً يسعد النفوس ويفيد العقول وتتشوق إليه القلوب .

وكان ﷺ يراعى مقتضيات الكـــلام ســـواء فى حديثه أو فى هيئته أثناء الحديث ، فكان يبدو على وجهه ما يختلج فى صـــدره إذا غضب وأنذر ، إذ كان يعلو صوته أحيانًا وتحمر عيناه ، وذلك مثلمـــا حدث حين تشفع أسامة ابن زيد فى أمر المرأة المخزومية السارقة .

وفى حالات أخرى ينخفض صوته ويهدأ أداؤه إذا كان فى مواقف الإرشاد والإفهام والوعظ والتوضيح والتقرير .

ومن حيث الشكل كان ﷺ حينًا يتكئ على عصا وهو يخطب فى العظات ، وأحيانًا يتكئ على قوس وهو يخطب فى الحرب ، فكان لكل نوع من الخطابة الهيئة التى تناسبها .

حقًا لقد اجتمع لرسول الله ﷺ من المقومات التى هيَّأها الله (عزَّ وجل) له ليكون فصيح العرب وصاحب البيان الجميل الرائع ؛ مما مكنه من نشر دين الله بصورة لم تتحقق لرسول من قبل .

Looloo
www.dvd4arab.com

الجاحظ يصف بيان الرسول :

يقول الجاحظ ناقد العربية الكبير وأحد الذين أسهموا فى وضع أسس النقد والبيان العربى متحدثًا عن كلام الرسول ﷺ :

« ألقى الله على كلامه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والفصاحة والحلاوة » .

ويقول أيضًا :

« ... هو الكلام الذى قــل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ، لم ينطق إلا عن ميزان حكمة ولم يتكلم إلا بالكلام قد حف بالعصمة وشد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق » .

بيان الرسول فى ذوق المعاصرين :

ويقول شيخ العربية فى العصر الحديث الأستاذ عباس محمود العقاد متحدثًا عن بلاغة الرسول[1] .

« كان محمد فصيح اللغة ، فصيح اللسان ، فصيح الأداء ، وكان بليغًا على أساس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين ، بل قدوة المرسلين » .

ويقول الأستاذ سعيد حوى :

« ... السر فى فصاحته أنه يقول الكلمة القصيرة فتبلغ كل مبلغ ، وتحيط كل إحاطة[2] ، وتصل إلى أدق القضايا ويتفاوت الناس فى الأخذ بها على مقدار ما أوتوا من حكمة وعلم وذكاء وفهم » .

(١) عبقرية محمد .. عباس العقاد .

(٢) كتاب الرسول .. سعيد حوى .

٨

صاحب الذِّكْر المرفوع

صلى الله عليه وسلم

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾

صدق الله العظيم

Looloo
www.dvd4arab.com

ذكر مرفوع :

يقول الله تعالى فى سورة الشرح : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ﴾

فهذه السورة الكريمة تشير إلى مظهر من مظاهر رفعة قدر رسول الله ﷺ إذ إنه صاحب الذكر المرفوع ؛ لأن الله هو الذى رفع هذا الذكر .

وقد أفاض العلماء فى بيان مظاهر رفع ذكره الذى هو مظهر من مظاهر رفعة القدر وعلو الشأن ، فيقول صاحب صفوة التفاسير(*) فى تفسير الآية :

أى رفعنا شأنك وأعلينا مقامك فى الدنيا والآخرة ، وجعلنا اسمك مقرونًا باسمى . قال مجاهد : (لا أذكر إلاَّ ذكرت معى) ، وقال قتادة : (رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا بصاحب صلاة إلا ينادى : أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله) .

وفى الحديث : أتانى جبريل فقال لى :

يا محمد .. إن ربَّك يقول :

أتدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت :

الله تعالى أعلم . قال :

إذا ذُكِرْتُ ذُكِرتَ معى .

كما ذكر صاحب صفوة التفاسير ما ورد بهذا الخصوص فى تفسير البحر المحيط فقال : قرن الله ذكر رسول الله بذكره جل وعلا فى كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطب ، وفى غير موضع فى القرآن ، وأخذ على الأنبياء الميثاق أن يؤمنوا به .

(*) صفوة التفاسير : محمد على الصابونى .

يقول حسان بن ثابت :

وضمَّ الإله اسم النبى إلى اسمه .

إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله

فذو العرش محمود وهذا محمد

اسمه على قوائم العرش :

أكَّد كثير من العلماء أن اسم رسول الله (محمد) ﷺ مكتوب على قوائم العرش ، واستدلوا على ذلك بالعديد من الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله .

فقد روى أبو الفرج الجوزى(*) بسنده إلى ميسرة قال : قلت يا رسول الله .. متى كنت نبيًّا ؟

فقال : لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وخلق العرش ، كتب على ساق العرش : محمد رسول الله ، خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام ، وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله أنه من ولدك ، فلما غرَّهما الشيطان تابا واستشفعا بى .

كما روى أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

قال رسول الله ﷺ :

(*) عن كتاب (مفاهيم يجب أن تصحح) تأليف محمد علوى المالكى المكى الحسنى .

Looloo
www.dvd4arab.com

لمـّا أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال :

يا رب .. بحق محمد ألا غفرت لى ، فأوحى إليه : وما محمد ؟ ومَنْ محمد ؟ فقال : يا رب .. إنك لما أتممت خلقى رفعت رأسى إلى عرشك فإذا مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك ، إذ قرنت اسمه مع اسمك فقال : نعم ، قد غفرت لك ، وهو آخر الأنبياء من ذريتك ، ولولاه ما خلقتك . وقد ورد الحديثان فى كتاب الفتاوى لابن تيمية للتدليل على ذلك ، وابن تيمية معروف عنه شدة التدقيق فى قبول ما يسند إلى رسول الله ﷺ .

عهد من الأنبياء بالإيمان به :

ومن مظاهر رفع ذكره عليه الصلاة والسلام أن الله كرمه قبل أن يولد وأعلم عنه وطالب الأنبياء أن يؤمنوا به ، بأن أخذ العهد والميثاق عليهم جميعًا بذلك ، وبأن يخبروا أقوامهم أن يؤمنوا به . يقول الله تعالى :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ .

لذلك يقول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو سعيد الخدرى :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر

وبيدى لواء الحمد ولا فخر

وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلاّ وتحت لوائى ... »

رواه الترمذى ..

ويقول على بن أبى طالب ﷺ :

لم يبعث الله نبيًّا من آدم فما بعده إلاّ أخذ عليه العهد فى محمد ﷺ لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، ويأخذ العهد بذلك على قومه .

وقال القاضى عياض :

أخذ الله الميثاق بالوحى ، فلم يبعث نبيًّا إلا ذكر له محمدًا وبعثه وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به(*) .

اقتران اسمه باسم الله :

ممَّا أفاض به الله (عزَّ وجل) على رسوله الكريم من تكريم فى مجال رفع ذكره أن قرن اسمه ﷺ باسم الخالق العليم رب العرش العظيم ، وذلك مصداقًا لقول الله (عزَّ وجل) : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ ، وأى تشريف وتعظيم يرضى رسول الله أكثر من أن يقترن اسمه باسم الله ، ذلك أن كل ما أعطاه الله رسوله من نعم ، وأفاض عليه من شرف لا يصل فى إعلاء الذكر ما يصل إليه أن يقترن اسم الخالق بالمخلوق ، والرسول بمرسل الرسول .

روى عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

« لما فرغت مما أمرنى به من أمر السموات والأرض قلت : يا رب .. إنه لم يكن من نبى إلاّ كرمته ، جعلت إبراهيم خليلاً ، وموسى كليمًا ، وسخرت لداود الجبال ، ولسليمان الريح والشياطين ، وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلت لى ؟ قال : أوليس قد أعطيتك أفضل من هذا كله ؟ إنى لا أذكر إلاّ ذكرت معى ... » ولذلك يقول ﷺ .

(*) المرجع السابق .

Loo100
www.dvd4arab.com

« الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس أجمعين بشيرًا ونذيرًا ، وأنزل علىَّ القرآن فيه بيان لكل شىء . وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس وجعل أمتى وسطًا وجعل أمتى هم الأولون والآخرون ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى .. »

فرسول الله ﷺ يحمد الله على ما أنعم عليـــه من فضل ونعمة ، وأجلها بالنسبة إليه أنه شرفه برفع ذكره .

ومن مظاهر ذلك الاقتران أن الداخل فى الإسلام لابد أن يشهد برسالته ﷺ بعد الشهادة بالربوبية وألوهيـــة الله (عزَّ وجل) ، فهو حين ينطق بالشهادة ويقول : لا إله إلاَّ الله ، يشهد على الفور بأن محمدًا رسول الله ، فالشهادتان هما المدخل الأول والأساسى لمن يرغب فى الدخول فى الإسلام ، وهذه الشهادة أيضًا هى آخر ما يحرص عليه العبد حين يخرج من الدنيا ومن مظاهر هذا الاقتران أيضًا بين الاسمين ؛ اسم الله العظيم واسم رسوله الكريم ، أن الأذان يتردد خمس مرات كل يوم ، فيقول المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم يقول : أشهد أن محمدًا رسول الله .

ويقترن أيضًا الاسم الحبيب باسم خالقه العظيم حين الإقامة ، وأيضًا حين أداء الصلاة ؛ إذ إن المصلى حين الجلوس للتشهد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

* * *

إن رسول الله ﷺ هو حقًّا صاحب الذكر المرفوع ، تعالى الله العظيم الذى تخيره ليرفع ذكره ليحقق وعده سبحانه الذى جاء فى قوله الكريم : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فصار واقع الحال مطابقًا لقول الرحمن : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

٩

صاحب السنَّة المحفوظة

صلى الله عليه وسلم

Looloo
www.dvd4arab.com

سنة محفوظة :

يتميز رسول الله ﷺ من بين الأنبياء بأن آثاره وأخباره وصفاته وأخلاقه وعاداته وتصرفاته معروفة محفوظة ، يعرفها الناس فى كل عصر وفى كل مكان .

ولا نجد فى كتب السيرة والتاريخ ذكرًا ووصفًا لوقائع أُثرت عن إنسان عبر التاريخ فيه الدقة والوضوح والتفصيل مثلما أثر عن رسول الله ﷺ ؛ إذ نجد اهتمام الصحابة والتابعين وتابعى التابعين بحفظ ما أثر عن رسول الله ﷺ ، وتسجيل دقائق خَلْقه وخُلُقه ، وعاداته وعباداته ، وأقواله وأفعاله ، وكل ما يتصل بشخصه الكريم .. كل ذلك روته الأجيال بكل الدقة والحصر ، وبكل الحرص والأمانة حتى تم تسجيله فى كتب السيرة والشمائل .

الحب هو الدافع لحفظها :

وهذا الاهتمام البالغ بتسجيل كل ما أثر عن رسول الله ﷺ أمر لم يحدث لإنسان آخر فى التاريخ الإنسانى سواء كان رسولاً أو زعيمًا ، وإذا أردنا أن نبحث عن تفسير لذلك الحدث الفريد عبر الزمان نجد أن دافع الناس إلى ذلك هو الحب العميق لشخصه الكريم المحبوب ، والتقدير الفائق لعظمته التى بهرت الناس أجمعين ، تلك العظمة التى هى عطاء الله لنبيه حتى يكون النموذج المتألق فى الخلق والسلوك أمام بنى الإنسان حتى آخر الزمان .

تقدير الله وحكمته :

إن حفظ سنة رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب النادر هو من تقدير الله وحكمته ؛ إذ إنَّه (عزَّ وجل) قد اختاره ليكون الأسوة والقدوة ، وتكون سلوكياته وتصرفاته هى النموذج الراقى أمام البشر حتى يقتدوا ويتأسوا ،

ولأجل ذلك اقتضت حكمته أن يكون ذلك محفوظًا ومعروفًا أمام الناس فى كل العصور وفى كل الأماكن ، ومن أجل ذلك صرف الله قلوب المسلمين إلى تتبع كل ما يصدر عن رسول الله من حركة وسكون وعادة ، وعبادة ، وأخذ ورد ، وقول وفعل ، وألهمهم سبحانه أن يعنوا به كل العناية ، ويهتموا به كل الاهتمام حتى تمكن أن تكون حياته نموذجًا حيًّا لمن أراد أن يتأسى بالسلوك الجميل ، يقول الله (عزَّ وجل) : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ .

فرسول الله ﷺ هو القدوة الصالحة والأسوة الحسنة للبشرية فى كل عصورها وفى كل أرجائها ولهذا كان إعداد الله له وتأديبه إيَّاه وكانت أيضًا حكمته فى أن ألهم الناس حفظ سنته حتى تكون مشعل نور وهداية للإنسانية فى كل الأوقات .

الاهتمام الكبير :

ولقد كان اهتمام المسلمين بهذا الأمر حدثًا خارقًا وعجيبًا لم يتكرر حدوثه مع أى رسول من قبل ، فقد حرص الصحابة على ملازمة الرسول والاستماع إليه ، وكانت لهم مقدرة عجيبة على الحفظ ، وقد حفظوا كلامه إعجابًا بشخصه ؛ لذلك كانوا يتناوبون حضور مجلسه ، ويلتقطون حديثه ، ويتعرفون على أفعاله ، وكان رسول الله ﷺ حريصًا على أن يتعرف الناس على سنته ؛ لأنها أحد مصادر التشريع ، فكان يقول :

« نضر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلَّغه كما سمعه ، فرب سامع فقه لا فقه له ، ورب مبلغ أوعى من سامع » .

لذلك أولى الناس سنة رسول الله ﷺ كل الإجلال والتقدير ؛ كى يلتزموا بها وبأحكامها ، وإجلالاً وحبًّا واحترامًا لصاحبها .

Loolo
www.dvd4arab.com

التدقيق فى قبول السُّنة :

وحين تم تدوين السنة دقّق الناس فى قبول الأحاديث للتثبت من صحتها ، فكانوا لا يقبلون الحديث إلاّ إذا شهد اثنان على أنه ثبت عن رسول الله ﷺ .

وظهر علم الجرح والتعديل للتثبت من صحة سند الحديث . كما ظهرت الأسس العلمية السليمة لنقد متن الحديث ، وقد تقدمت دراسات الحديث ونضجت مما أدى إلى وضع أسس تقسيم الأحاديث حسب درجاتها من الثبوت والصحة ، وأصبح لدينا ما يطلق عليه الحديث المتواتر ، والحديث المشهور ، وخبر الآحاد ، والحديث الحسن ، والحديث الضعيف ، والحديث المرسل ، والحديث المنقطع ، والحديث المعضل ، والحديث القدسى ، والبلاغات .

وتضمنت رواية الحديث الهيئة التى كان عليها رسول الله ﷺ حين نطق بالحديث ، من الرضا والغضب . والحل والسفر والجلوس والمشى أو العمل ، بل نجد أن الراوى أحيانًا يقول : وكان متكئًا فجلس ، وأحيانًا يذكر تكرار رسول الله ﷺ الحديث لتأكيده .

تأدب السلف مع السُّنة :

ومن الأمور اللافتة للنظر فى دراسة سيرة الرسول ﷺ الكم الهائل من التأدب والاحترام الذى أبداه السلف مع أحاديث الرسول وسنته وذلك إلى حد منقطع النظير ، فكان الإمام مالك ــ مثلاً ــ لا يحدث إلاّ وهو متعطر وعلى طهارة ، ومرتديًا أحسن ملابسه ، جالسًا بوقار وخشوع ، وكان يزجر من يرتفع صوته فى مجلس الحديث ، مذكرًا بقول الله (عزّ وجل) :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﴾ .

وكان الإمام البخارى لا يدون حديثًا إلاّ إذا صلى ركعتين ، ويقول :

(جعلته حجة بينى وبين الله تعالى)

سُنة شاملة :

لقد كان منْ حول رسول الله ﷺ المتأسون به والمقتدون بسلوكه حريصين على تتبع سلوكه فى مواقع الحياة ، يلتقطون أقواله ، ويشاهدون سلوكه فى مختلف المواقف ، ماذا يقول وماذا يفعل إذا استيقظ من نومه ، وإذا أكل ، وإذا شرب ، وإذا رأى الهلال ، وإذا جلس ، وإذا استقبل امرأ أو ودعه أو جالسه ، وإذا لبس جديدًا ، وإذا رزق مولودًا ، وإذا أفطر من صيام ، وإذا سافر ، وإذا عاد من سفره ، وإذا صلى ، وإذا صام ، وإذا دعا ربه ، وإذا ألم به ما يفرح ، أو يحزن ، وإذا قضى الحاجة ، وإذا خرج من المنزل ، وإذا توجه إلى المسجد ، وإذا توضأ ، وإذا سمع الأذان ، وإذا صلى ، وعند رؤية أهل البلاء ، وحين يركب الدابة ، وعند العطاس . وعند التثاؤب ، وعند الاستخارة ، وإذا أراد طرد الشيطان ، وإذا حدثت المصيبة ، وعند المرض ، وعند الغضب ، وعند دخول السوق ، وعند رؤية باكورة الثمر ، وللتسليم بقضاء الله وقدره ، وعند لقاء العدو ، وعند زيارة القبور ، وعند التهنئة بالزواج ، وعندما تهيج الريح ، وعند سماع الرعد والصواعق ، وعند نزول الغيث ، وإذا تعسرت المعيشة ، وإذا استصعب أمرًا ، وعند كسوف الشمس ، وعند الاستسقاء .. إلخ .

looloo
www.dvd4arab.com

لقد حرص الصحابة والتابعون من بعدهم على أن يعرفوا عن رسول الله ﷺ كيف كان يسلك فى سائر مواقف الحياة حتى يستطيعوا أن يجعلوه قدوة ومثلاً ، وحتى يستجيبوا لأمر الله بأن يجعلوه القدوة والأسوة ، ولذلك عرف المسلمون عن رسول الله وحياته وسنته الكثير ، فكأنه عاش بيننا وعاصرناه ، وكأننا فى الأزمات المتتابعة قد تعرفنا عليه من خلال حضور مجالسه والاستماع إلى أحاديثه ، وصار أغلب المسلمين حريصين على ألاّ يبتُّوا فى أمر إلاّ من خلال الاقتداء به والتأسى بسيرته ؛ لأن ذلك فى الإمكان ؛ إذ إنه لا أحد يجهل سيرته .

مقـــارنـة :

وإذا قارنا بين ما كان من سيرة رسول الله وسيرة غيره من الأنبياء والرسل يتضح الفارق الكبير بين ما كان من أمره وما كان من أمورهم ؛ إذ إن سيرهم عليهم السلام ليس لها من البقاء والاكتمال والوضوح ما لسيرة رسول الله ﷺ . ويكفى أن تقارن بين سيرته وسيرة السيد المسيح عليه السلام الذى كان آخر الأنبياء قبل بعثة الرسول الله ﷺ ، وتتبعه أمة أحبته إلى درجة التأليه والتقديس ، لكن لا يوجد من سيرته إلاّ القليل النادر الذى لا يمكن أن يكون هيكلاً من حياة بشرية كاملة . يستطيع الإنسان أن يقتدى بها ويتأسى مثلما يقتدى المسلمون بنبيهم .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى(*) :

(*) كتاب (النبى الخاتم) للأستاذ : أبو الحسن الندوى .

« ... وكان الاعتقاد السائد فى العالم المسيحى قبل أيام أن العهد الجديد (الإنجيل) يتضمن أخبار السنوات الأخيرة من سيرة السيد المسيح وأخباره ، وانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص فى الموضوع – فى الزمن الأخير – إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يومًا من حياته لا أكثر ولا أقل » .

ويستند الأستاذ أبو الحسن الندوى فيما ذكر على رأى القس الدكتور سارلس إسكات فى مقاله فى دائرة المعارف البريطانية الطبية التى يقول فيها :

« ينبغى أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتاب فى سيرة المسيح بكل صراحة ووضوح ، فإنه لا وجود للمادة والمعلومات التى تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والأيام التى توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يومًا » .

ويستمر الأستاذ الندوى قائلاً :

« أمَّا الأنبياء الآخرون ، وعظماء الملل والديانات السابقة ، فيصح القول أنّ أخبارهم وصور حياتهم مطمورة فى ركام الماضى » .

ويستمر الأستاذ الندوى فى حديثه موضحًا أسباب بقاء سيرة رسول الله ﷺ على النحو الموجود فى الكتب وفى قلوب المسلمين :

« وهذا عين ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ، فالمثل الإنسانية لها أعمار صعبة وحيوية محددة ، فإذا انتهت لم تكن مصلحة فى تناقلها(١) ، أمَّا ما كانت الحاجة إليه قائمة(٢) فيبقى على اختلاف الزمان والمكان ، واستمر وانتشر وأورق وأثمر(٣) .

(١) يقصد الأنبياء السابقين الذين نسخت رسالاتهم .
(٢) يقصد محمدًا ﷺ رسول الدين الخالد .
(٣) المرجع السابق « النبى الخاتم » .

Looloo
www.dvd4arab.com

١٠

صاحب الإسراء والمعراج

تكريم عظيم

يعتبر حدث الإسراء والمعراج أكبر تكريم من الخالق العظيم لواحد من عباده ، فهى رحلة عظيمة لم تتكرر ، حيث نقل الله إليه عبده ورسوله كى يخفف عنه أحزانه التى عاناها بسبب وفاة سنديه الكبيرين : عمه أبى طالب وزوجته الكريمة السيدة خديجة ، وما أعقب ذلك من مغالاة مشركى قريش فى إيذائه وإيذاء المسلمين ، ولما بحث رسول الله ﷺ عن أنصار لدعوته وانتقل إلى أهل الطائف داعيًا إياهم إلى دين الله أساءوا استقباله ومعاملته إلى حد بعيد ، فلجأ إلى الله يبثه حزنه بعد أن ضاقت به الدنيا وانصرف عنه أهلها ، وتوجه قلبه ولسانه إلى الله يهتف :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى مَنْ تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى .

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنـــزل بى غضبك أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك » .

وكان الإسراء هو ثمرة هذا التوجه إلى الله يخفف سبحانه عن رسوله أحزانه ويطيب خاطره ويمده بمدد من عنده ، ويضفى عليه الشرف والتكريم ، ويحقق له رفعة القدر وسمو المنـزلة .

ونشير إلى بعض ملامح هذا التكريم .

Looloo
www.dvd4arab.com

يقترب من ربه :

اقترب رسول الله ﷺ إلى درجة لم يصل إليها نبى أو رسول ، فهو أقرب المقربين إلى الله تعالى ، حيث تخطى الأرض والسموات وتجاوز الكون كله حتى وصل إلى قاب قوسين أو أدنى .

لقد مرَّ ﷺ على السموات حيث يتواجد الأنبياء والرسل ، يتجاوزها واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحدًا بعد الآخر ، وهذا الارتقاء المكانى يرتبط به ارتقاء معنوى وروحى ، يقول الإمام الشيخ عبد الحليم محمود(*) .

« فهو ﷺ فى سياحته الروحية قد بلغ فى معراجه إلى درجة تجاوزت فى روحانيتها آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة ، وهكذا حتى تجاوز روحيًا إبراهيم عليه السلام فى سمائه السابعة ، ولقد تجاوز كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب أو نبى مرسل ، ولقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، حيث عرج به إلى السماء وأخذ يرتقى سماء سماء ، ثم تجاوزها إلى سدرة المنتهى وإلى قاب قوسين أو أدنى ، وهناك حيَّا ربه : (التحيات لله والصلوات والطيبات) وحيَّاه الله (عزَّ وجل) : (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) ، فقال الرسول ﷺ :

(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) .

(*) كتاب : (الرسول ﷺ لمحات من حياته وأنوار من هديه) للشيخ عبد الحليم محمود .

يرى ربه :

نال رسول الله ﷺ هذا الشرف العظيم من دون الأنبياء أو الملائكة ، فلم يرق من البشر أحد غيره المكان الذى وصل إليه ، ولم يرق من الملائكة أحد ذلك المكان ، حتى ملك الوحى جبريل عليه السلام تأخر وترك رسول الله يتقدم ، وهو يقول :

« أنا لو تقدمت لاحترقت ، وأنت لو تقدمت اخترقت » .

وتقدم رسول الله ﷺ متجاوزًا الكون كله إلى أن كان عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، يقول الدكتور أحمد أمين(١) :

« ... عند ذلك غشَّاها ما غشَّى من نور الخلاَّق رب العزة جل شأنه فاستنارت ، ثم واصل النبى ﷺ معراجه إلى مستوى لم يبلغه بشر ولا نبى مرسل » ، ويقول الدكتور محمد حسين هيكل(٢) :

« ... ثم كان فى حضرة العرش ، وكان منه قاب قوسين أو أدنى ، يشهد الله بعين بصيرته ، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها ، وتفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان ، ومدَّ العلىُّ العظيم يدًا على صدر محمد والأخرى على كتفه فأحس النبى كأنه أثلج إلى فقاره ، ثم بسكينة راضية وفناء إلى الله مستطاب .. »

(١) شروق الإسلام ص ٣٧٤

(٢) فى منزل الوحى ١٦٤

Looloo
www.dvd4arab.com

توليه زمام القيادة الروحية :

لقد كان الإسراء تمهيدًا للمعراج ، وكان من الممكن أن يتم المعراج من مكة ، ولكن الله (عزَّ وجل) شاء أن يكون المعراج من القدس ، حيث المسجد الأقصى ، وفى ذلك إشعار بأن رسول الله ﷺ سيرفع اللواء الأبدى للدعوة إلى الله ونشر دينه ، وفى ذلك إشعار بأن اليهود سيتم عزلهم عن منصب القيادة الروحية للإنسانية ، بسبب ما ارتكبوا من جرائم وما مارسوا من أخطاء جعلتهم لا يستحقون هذا الشرف ، وبذلك يكون رسول الله ﷺ قد ألغى مهمة من سبقه من الأنبياء ؛ لأن ما جاء به من دين هو ناسخ لما سبقه من أديان ، وهذا إيذان بأن أمته ستتولى الدعوة إلى الله ، وبالتالى تتولى مهمة القيادة الروحية بدلاً من اليهود ؛ ولذلك فإن موسى عليه السلام حين جاوزه رسول الله فى معراجه بكى ، فلما سئل عن سبب بكائه قال : أبكى لأن غلامًا بعث من بعدى ، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى » .

لقد كان المعراج من بيت المقدس إعلانًا بأن رسول الله ﷺ هو صاحب الدين الخاتم الذى ينسخ ما قبله والباقى إلى آخر الزمان ، وبذلك يكون قد أكمل اللبنة التى كانت ناقصة فى صرح دين الله ، فاكتمل ببعثه دين الله ، وصار هو خاتم الأنبياء ، وحامل راية التوحيد إلى آخر الزمان .

إمامة الأنبياء :

حين وصل رسول الله ﷺ فى رحلة الإسراء إلى القدس وجد حشدًا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فى استقباله إيناسًا له وترحيبًا به ، واصطف الأنبياء للصلاة ، فقدم جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ ليؤمهم للصلاة ، وبذلك تحققت وحدة رسالات السماء فرسالة الإسلام هى اللبنة الأخيرة وهى التى تحقق اكتمال الدين ، ورسوله هو خاتم الأنبياء وهو أفضلهم رغم مجيئه آخرهم ، يقول الإمام البيهقى فى كتاب دلائل النبوة : الأفضلية ليست بالسبق الزمنى وإنما بما فضل الله سبحانه وتعالى ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ .

ولذلك قام الأنبياء والرسل ومعهم جبريل عليه السلام بتقديم رسول الله للصلاة بهم جميعًا تأكيدًا لحقيقة أفضليته من قبل الله تعالى ، وتقديرًا لشخصه ، واعترافًا بفضله ، وإنزالاً له المنـزلة التى يستحقها ، وإجلالاً لمكانته عند ربه ، حيث تقدم الأنبياء جميعًا بما فيهم آدم عليه السلام . وإبراهيم عليه السلام ، أبو الأنبياء ، فما تقدم الرسول الأنبيـاء وأمهـم فى الصلاة إلا لأن الله فضله فجعله أكمل رسول .

إكرام أمته بالصلاة :

أكرم الله (عزَّ وجل) رسوله ﷺ وأكرم أمته بالصلاة خلال رحلة المعراج ، فرفع قدره وقدر أمته ، وذلك لأنها الوسيلة التى يتحقق بها القرب بين الله وعباده .

يقول الشيخ عبد الحليم محمود[1] :

« ... ما من شك فى أنَّ الصلاة من أنجح الوسائل فى القرب من الله ، إنها البراق الذى يجتاز به المؤمن فى سرعة سريعة طبقات البعد عن الله سبحانه وتعالى ، ليصل إليه فينعم فى رحابه » .

ولقد كانت الصلاة تكريمًا لرسول الله ﷺ حيث أدناه ربه منه وفرض الصلاة على أمته ؛ ولذلك فهى تكريم له وتكريم لأمته » .

يقول العلامة القسطلانى فى كتابه (المواهب اللدنية)[2] :

« ... لقد رأى رسول الله لما عرج به إلى السموات الملائكة ، فى حالات متعددة يعبدون الله سبحانه ، فمنهم القائم فلا يقعد ، والراكع فلا يسجد ، والساجد فلا يقعد عن السجود ، فجمع الله تعالى له ولأمته فى فرض الصلوات الخمس تلك العبادات كلهـا فى ركعة يصليها عباده المؤمنون ، وكان ذلك فضلاً منه لسيدنا محمد ﷺ ورحمة لأمته » .

(١) الرسول ﷺ لمحات من حياته وأنوار من هديه .
(٢) عن كتاب (نبذة من السيرة) للعلامة الطرزى .

Looke
www.dvd4arab.com

الإسراء والمعراج معجزة :

هناك معجزات حدثت على العديد من الأنبياء والمرسلين ، مثل ما تحقق على يد إبراهيم عليه السلام الذى جعل الله له النار بردًا وسلامًا ، ومثل موسى عليه السلام الذى أعطاه الله عصا تلقف سحر الساحرين ، كما أعطاه غيرها من المعجزات ، ومثل عيسى عليه السلام الذى أنطقه الله فى المهد ، وجعله يحيى الموتى ويشفى المرضى بإذن الله . كما أيد الله نبيه داود عليه السلام فألان له الحديد يصنع منه الدروع السابغات دون استعمال نار أو ضرب أو مطرقة ، وجعل الطير يسبحن معه إذا سبح ويرجعن إذا رجع .

وأيَّد الله نبيَّه سليمان عليه السلام فسخَّر له الريح وجعلها تحت أمره ، فكانت تنقله وحاشيته من قطر إلى قطر ، فكان غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر للراكب المسرع فى سيره ، كما أسال له معدن النحاس الذى كان لا يذوب قبل ذلك ، كما سخر الجن والشياطين يعملون له ما يشاء من مساجد وقصور وحصون .

ولقد شاءت إرادة الله (عزَّ وجل) أن تكون معجزة رسوله الكبرى تتمثل فى القرآن الكريم ، كى تكون معجزة باقية متجددة تخاطب العقل فى كل زمان ومكان ، لكنه أكرم رسوله فى الوقت نفسه بمعجزة الإسراء والمعراج تكريمًا لشخصه وتطييبًا لخاطره ، كما أكرم غيره من الأنبياء السابقين تصديقًا له فى دعوته ، ومن ملامح التأييد والنصرة ومن مظاهر الإعجاز أيضًا أن الله مكنه من أن يصف المسجد الأقصى لكفار مكة الذين طلبوا منه ذلك ؛ كى يبرهن على صدقه ، لأنهم كانوا يعرفون أنه لم يكن قد زاره من قبل فلما التبس عليه الأمر وهو يصف لهم المسجد فى مكة وضعه الله أمامه فنظر إليه الرسول ووصفه لهم بابًا بابًا وجزءًا جزءًا مما جعل القوم يقولون : أمّا النعت فوالله لقد أصاب .

لقد كان الإسراء حقًّا معجزة لرسول الله وكانت مظهرًا من مظاهر تكريمه ورفعة قدره .

١١

صاحب الدين العالمى

صلى الله عليه وسلم

Looloo
www.dvd4arab.com

الديانات قبل الإسلام

كانت الديانات السابقة قبل الإسلام تختص بشعب بعينه أو بإقليم محدد ، أو بفترة زمنية تطول أو تقصر لكنها محددة .

وعلى سبيل المثال نجد أن رسالات أنبياء بنى إسرائيل كانت مؤقتة ، ولذلك كانت متراسلة ، كل نبى يكون مبعث الهداية لفترة مؤقتة ومحددة ، ويعقبه نبى آخر يكون هو الآخر هاديًا لقومه فترة محددة ، وكانت دعواتهم لبنى إسرائيل ، ولم يكلف اليهـــود أن يبلغوا الرسالة إلى أمم أخرى غيرهم ، بل كان ذلك مُحَرَّمًا حسب النصوص اليهودية .

تقول السيدة مريم جميلة التى اعتنقت الإسلام من اليهود[1] :

« ليس على اليهود أن يبلغوا دينهم إلى غيرهم ، بل إنهم لا يرحبون بالدخول فى ديانتهم ... »

ويقول رسول الله ﷺ :

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى .. »

وكذلك كانت دعوة المسيح خاصة لبنى إسرائيل ، فهو عليه السلام يقول إنه قد بعث لبنى إسرائيل ليرعى خراف بنى إسرائيل الضالة[2] ولذلك اقتصر فى دعوته على أرض إسرائيل وقراهم ، ولما لفت نظره تلاميذه وحواريوه إلى ذلك ، وأنه يقصر دعوته على شعب إسرائيل قال :

(إنى لست ذلك الرجل الذى يعطى خبز الأولاد للكلاب[3]) .

(١) عن كتاب (النبى الخاتم) أبو الحسن الندوى .
(٢) ، (٣) إنجيل متى باب ١٥ .

وتقول أسفار الخروج أن الله (عزَّ وجل) أرسل موسى لبنى إسرائيل : « فقال الله أيضًا لموسى هكذا تقول لبنى يهود إله آبائكم ، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلنى إليكم » فهذا ما تقرره التوراة بالنسبة لرسالة موسى عليه السلام ، فهو لقومه فحسب .

أما رسالة المسيح فهى أيضًا لبنى إسرائيل فحسب ، يقول إنجيل متى : « وهؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع ، وأوصاهم قائلاً :

إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف إسرائيل الضالة » .

الدين الإسلامى :

وبالنسبة للإسلام فقد جاء دينًا عامًّا لكل الشعوب ، فالأمر مختلف بالنسبة للأديان التى سبقته ، إذ كان يحمل تعاليم جديدة وشرائع وأحكامًا تتناسب وتغير الزمان والأحوال ، فهو دعوة لجميع الأمم ، وهو بذلك لا يكون حكرًا على شعب دون شعب ، وإنما هو ثروة مشتركة لجميع الشعوب ، ولم يبعث رسوله محمدًا ﷺ خاصة للعرب فقط ، وإنما أرسل للأقوام جميعًا ، فهو وإن كان عربيًّا بحكم المولد واللسان ، إلاَّ أنه من حيث التعاليم والتشاريع يعتبر هداية للناس جميعًا ، وميراث للبشر كلهم من كل جنس ولون ، وفوق أى أرض وفى أى زمان ؛ لأن نبى الإسلام هو نبى الخلود ، وهو خالد بخلود الإسلام .

حديث القرآن عن الأنبياء السابقين :

وإن هذه الحقيقة يؤكدها القرآن الكريم ، فهو فى حديثه عن الأنبياء السابقين يذكر أنهم رسل لأقوامهم برسالات خاصة إليهم

Looloo www.alukah.com

يقول تعالى عن بعث موسى عليه السلام :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ﴾ ، وكانت دعوته إلى قومه فقط ، يقول تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ .

ويتحدث (عزَّ وجل) عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ﴾ .

ويتحدث (عزَّ وجل) عن هود عليه السلام فيقول :

﴿ وإلى عاد أخاهم هودًا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ .

ويتحدث (عزَّ وجل) عن صالح عليه السلام فيقول :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ .

ويتحدث (عزَّ وجل) عن شعيب عليه السلام فيقول :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ .

ويتحدث (عزَّ وجل) عن لـوط عليه السلام فيقول :

﴿ ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ .

ويتحدث (عزَّ وجل) عن عيسى عليه السلام فيقول :

﴿ وإذ قـال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسـول الله إليكم ﴾ ويقول سبحانه :

﴿ ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ .

فيؤكد الله (عزَّ وجل) أن الرسل السابقين كانوا يرسلون إلى أقوامهم فيقول سبحانه : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم ﴾ .

هكذا يتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء السابقين فيتضح أنهم كانوا ذوى رسالات خاصة إلى أقوامهم من أجل أن يهدى كـل رسـول قومه إلى طريق الله ، وسوف يكون الأمر مختلفًا حين يتحدث القرآن الكريم عن نبى الإسلام .

حديث القرآن عن نبى الإسلام :

يختلف حديث القرآن عن نبى الإسلام فيؤكد الله (عزَّ وجل) أنه ليس رسولاً إلى قوم بذواتهم ، ولكنه رسول الله إلى الناس جميعًا ، يقول تعالى مخاطبًا رسول الله ﷺ : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ، ويقول : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ﴾ .

ويقول : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ﴾ .

ويقول : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ﴾ .

ويقول : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به ﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ .

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

وغير ذلك كثير مما ورد فى القرآن الكريم ، يؤكد رسالة الإسلام عامة للناس جميعًا ، وليست قاصرة على مخاطبة العرب ، قوم محمد ﷺ ؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ يوم فتح مكة :

« الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقـوى » .

Looloo
www.dvd4arab.com

خطاب إلى غير العرب :

إنَّ القرآن الكريم لم يكن خطابًا للعرب فقط ، وإنما كان خطابًا للناس أجمعين ، بل إنَّ فى آيات القرآن الكريم خطابًا لا يمكن أن يفهم أنه خطاب للعرب ، وذلك مثل قوله تعالى :

﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ، الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ .

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد :

« فمن يقرأ وصف هؤلاء العباد الذين سخر لهم البحر ، وسخر لهم الأنهار ، وسخر لهم الليل والنهار ، لا يخطر له لحظة أنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بنى الإنسان فى جميع البلدان »(*) .

أدلة بالأرقام :

للأستاذ عبد الرزاق نوفل رحمه الله ولع بعالم الأرقام ، وقد تعقب آيات القرآن الكريم بالعد والحصر ، فتوصل إلى حقيقة تؤكد أنَّ رسول الله هو صاحب الدين العالمى ، وأنَّ الإسلام هو دين الإنسانية جمعاء .

لقد توصل إلى أنَّ لفظ الناس قد تكرر فى القرآن الكريم أكثر من ٢٤١ مرَّة ، بينما تكرر لفظ المسلمين ٤٢ مرَّة ، وهذا دليل على أنَّ القرآن الكريم دعوة للناس جميعًا ونداء للبشرية وليس للمسلمين فقط .

(*) كتاب الإسلام دعوة عالمية للأستاذ عباس العقاد .

ويؤكد ذلك أيضًا أن تكرار النداء بقول الله تعالى : ﴿ يا بنى آدم ﴾ وهو مثل النداء بيا أيها الناس ، وهذا يؤكد أنَّ القرآن الكريم الذى هو كتاب الإسلام دعوة عامة ، وأن الإسلام دين العالم كله ، وأنَّ نبى الإسلام هو صاحب الدين العالمى الذى أرسله الله رحمة للعالمين(١) .

القرآن لا يجامل العرب .

وثمَّة ما يؤكد عالمية الإسلام وأنه خطاب لجميع البشر ما يشير إليه الباحث نفسه (الأستاذ عبد الرزاق نوفل) فى قوله(٢) :

« ومن ضمن الأدلة الواضحة التى تؤكد أن دعوة القرآن الكريم إنما هى دعوة للناس جميعًا وليست لقوم أو لشعب أو أمة أو جزء من العالم ، أنه وقد نزل على سيدنا محمد ﷺ ، وهو عربى وفى بلاد العرب ، ونزل بلغتهم العربية ، لم يحاول أن يستميل إليه العرب ، وهم قومه وناسه ومنْ تنزل الآيات بينهم أو حتى لا يذكر ما هم عليه من فساد ، أو يخفى حقيقتهم ، فقد جاء ذكر الأعراب فى القرآن الكريم عشر مرات ، وفى كل مرة كان يذكر ما هم عليه من سوء ، ويشير الباحث إلى بعض هذه الآيات ، مثل قوله تعالى :

﴿ الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴾ وقوله (عزَّ وجل) :

﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ... ﴾

وقوله (عزَّ وجل) : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾ .

وهكذا نستنتج كما استنتج الباحث أن القرآن الكريم لم يجامل العرب ؛ لأنه حديث إليهم وإلى غيرهم من سائر أمم الأرض .

(١) ، (٢) كتاب التعريف بالإسلام للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

Looloo
www.dvd4arab.com

توجيه الدعوة إلى حكام العالم :

ومما يؤكد أنّ رسول الله ﷺ لم يبعث إلى العرب وحدهم ، وإنما أرسل إلى العالم كله وأن الإسلام ليس دعوة للعرب وحدهم ، وإنما هو دعوة إلى الخلق أجمعين ، ما كان من رسول الله ﷺ فى العام السادس الهجرى ، حيث أرسل رسله يحملون رسائله إلى ملوك الدول وحكامها ، وكان ذلك قبل فتح مكة ، وقبل أن يؤمن أهلها ، وقبل أن يستتب الإسلام فى جزيرة العرب .

لقد أرسل ﷺ رسله يحملون رسائله إلى إمبراطور الروم ، وإلى كسرى الفرس ، وإلى نجاشى الحبشة ، وإلى كبير القبط فى مصر ، وأيضًا بعث رسله إلى أمراء البلاد فى الجزيرة العربية وما حولها ، ومن بينهم أمير اليمامة وحاكم البحرين ، وهذا يؤكد عالمية الإسلام ، فرسوله ﷺ يخاطب الرومان والفرس والأحباش والقبط فى الوقت الذى يخاطب العرب الذين هم قريبون منه ، وقد بادر إلى الإسلام أقوام من غير العرب ، قبل أن يؤمن به العرب ، فكانوا أكثر سبقًا إلى الإيمان بدين الله .

معجزة الإسلام عالمية :

ومما يؤكد عالمية الإسلام معجزته ، فقد كان الله (عزَّ وجل) يؤيد رسله السابقين بمعجزة حسية ، فيراها قوم كل رسول فتكون دليلاً على صدقه ، فقوم صالح مثلاً شاهدوا الناقة معجزته ، وقوم موسى شاهدوا عصاه وما فعلت ، وقوم عيسى شاهدوه يحيى الموت ويبرئ المرضى ، بإذن الله ، وهى كلها معجزات حسية وقتية يؤمن بها مَنْ يراها ، وقد لا يؤمن بها من لم تصله أخبارها ، ويتشكك فيما نقل إليهم عن هذه المعجزات .

وبالنسبة لمعجزة رسول الله ﷺ فهى معجزة دائمة وباقية ؛ كى يراها الناس فى مختلف الأزمنة عبر الأجيال المتعاقبة وفى سائر الأوطان ، يرونها بعقولهم ، ويعرضونها على تفكيرهم فيجدون السبيل إلى الاقتناع .

إنها القرآن الكريم الذى تولى الله حفظه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ، ويجد الناس فيه عبر العصور وفى سائر البلدان وجوهًا للإعجاز تكفى لإقناع طبقات البشر على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم وعصورهم ، ويجد فيها المشرعون والقضاة والقادة كل الأحكام والقواعد الحكيمة للتشريعات السياسية والاجتماعية والمدنية والجنائية وغيرها من أنواع التشريعات ، ويجد فيها العلماء من حقائق العلم ما يؤكد إعجاز القرآن ، إذ يسرد حقائق ما توصل إليها العلماء إلا فى العصور المتأخرة بعد أن أسعفتهم آلات الرصد وأجهزة الفحص والتحليل ، وكلها من مخترعات العصور الحديثة ، وما كان يمكن لإنسان أن يتوصل إلى هذه الحقائق ، وإنما هى علم الله خالق الكون ومبدعه جاء على لسانه فى قرآنه معجزة خالدة وعامة لدين الإسلام العالمى الذى اختاره دينًا للناس أجمعين .

خاتمة :

إن كل الحقائق لتتضافر لتؤكد أن رسول الله ﷺ هو الوحيد من بين رسل الله السابقين هو صاحب الدين العالمى الذى أرسله الله هداية ورحمة للناس أجمعين . ففى الوقت الذى كان يكلف الله سبحانه كل رسوله بدعوة قومه إلى طريق الله وهدايتهم ، فإنه (عزَّ وجل) أرسل محمد بن عبد الله ﷺ هاديًا ورحمة للإنسانية جمعاء .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

١٢

صاحب الشَّفاعة

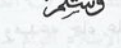

لقد حظى رسول الله ﷺ بالمنزلة العظمى وبالمكانة الكبرى فكان سيد ولد آدم وقد منحه سبحانه بكل ما يتواءم مع هذه المنزلة ولذلك جعله الشافع والمشفع وذلك أنه لا يشفع لديه إلاَّ لمن أذن له قال تعالى : ﴿ ... من ذا الذى يشفع عنده إلاَّ بإذنه .. ﴾ أى أنه لن يتقدم أحد ليكون شفيعًا لأحد إلاَّ إذا أذن له الله تعالى ، إذ لا يتجاسر أحد على الشفاعة ، وقد اختار الله سبحانه أن يكون رسول الله ﷺ هو الشفيع بعد أن جعله حبيبه وسيد ولد آدم ؛ لذلك لن يكون هناك من الأنبياء والمرسلين من يستحق الشفاعة سواه ، فلن يأذن لأحد أن يشفع عنده قبله ، لذلك يقول الرسول ﷺ :

« ألا وإنى حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ... »

يذكر رسول الله ما حباه الله به ليس على سبيل الفخر وإنما على سبيل تقرير الحقيقة وليتحدث بنعمة الله عليه كما أمره ربه فى سورة الضحى فقال (عزَّ وجل) : ﴿ وأمَّا بنعمة ربك فحدث .. ﴾

لذلك لا نعجب إذا كان عليه السلام هو صاحب الشفاعة فى الآخرة دون الأنبياء جميعًا .

آدم تشفع برسول الله :

وإذا كان الناس سوف يتشفعون برسول الله ﷺ يوم القيامة فإن آدم عليه السلام قد تشفع به وقبل أن يكون هناك بشر وقبل أن يخلق محمد عليه السلام ذلك أن آدم عليه السلام لما أخطأ لم يجد بابًا يطرقه إلى الله راجيًا عفوه إلاَّ الشفاعة برسول الله .

قال الحاكم فى المستدرك(*) :

(*) عن كتاب [مفاهيم يجب أن تصحح] لمؤلفه محمد علوى المالكى الحسنى .

Looloo
www.dvd4arab.com

حدثنا أبو سعيد عمرو بن محمد بن منصور العدل ، حدثنا أبو الحسن محمد بن إسحق بن إبراهيم الحنظلى ، حدثنا أبو الحارث عبد الله بن مسلم الفهرى ، حدثنا إسماعيل بن سلمة ، أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن جده عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب بحق محمد لما غفرت لى . فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه ؟ قال : يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك ، ونفخت فى من روحك ، رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله : صدقت يا آدم إنه أحب الخلق إلىَّ ، ادعنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك ، ويذكر مؤلف (مفاهيم يجب أن تصحح) إنَّ ممن خرَّج الحديث وصححه جلة من العلماء ، منهم الحاكم فى المستدرك ، والحافظ السيوطى فى الخصائص النبوية والبيهقى فى دلائل النبوة ، والقسطلانى والزرقانى فى المواهب اللدنية والسبكى فى شفاء العليل .

دعوة مؤجلة :

كان رسول الله ﷺ الذى لم يدع قومه من بين الأنبياء ، ولم يطلب الانتقام منهم ، ولم يرض أن يدعو الله كى ينتقم منهم على ما أسرفوا فى إيذائه وتعقبه خلال دعوته إلى الله ووضع العراقيل فى طريقه وحربه وإيذائه وحرب المسلمين وإيذائهم .

لقد وطئ عقبة بن أبى معيط على رقبة رسول الله ﷺ وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان وأدمى وجهه فلم يقل إلا خيرًا (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) وفى غزوة أحد دمى وجهه صلوات الله وسلامه عليه وكسرت رباعيته وكعادته لم يقل إلا خيرًا (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) وقد قيل له وهو فى أحرج المواقف لو لعنتهم يا رسول الله فقال : « إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانًا » .

هذا بينما نجد غيره من الأنبياء قد تضايقوا من أقوامهم لإسرافهم فى أمرهم كما أسرف أهل مكة مع رسول الله ، فدعوا الله أن ينزل عليهم غضبه وانتقامه ، فهذا نوح عليه السلام دعا عليهم فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجرًا كفارًا ﴾ ، واستجاب الله لدعاء نبيه فأرسل عليهم الطوفان وعاقبهم بما يستحقون .

وكذلك دعا غيره من الأنبياء على أقوامهم واستجاب الله فعاقب الأمم الظالمة .

ولم يسلك رسول الله ﷺ ما سلكه غيره من الأنبياء وإنما صبر وتحمل ، ولو دعا عليهم لاستجاب الله له ، وأجَّل دعوته فى الدنيا لتكون دعوة مستجابة فى الآخرة يرجو بها الله أن يعفو عنهم ، لذلك صار هو الشافع المشفع عليه الصلاة والسلام .

قلق الرسول ﷺ على أمته :

كان تأصل خلق الرحمة فى قلب رسول الله ﷺ والحب لأمته يجعله قلقًا عليها يحاول هدايتها بكل ما أوتى من سبيل ، كان يحزن كثيرًا لانصرافهم عن طريق الخير والهداية حتى أن ربه خاطبه مشفقًا عليه فيقول له فى سورة الكهف : ﴿ لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا ﴾ ويقول (عزَّ وجل) فى سورة الشعراء : ﴿ لعلك باخع نفسك ألاَّ يكونوا مؤمنين ﴾ .

ولقد طمأنه ربُّه فقال تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ . قال ابن عباس عن ذلك العطاء(*) :

(*) صفوة التفاسير (محمد على الصابونى) .

Looloo
www.dvd4arab.com

هى الشفاعة فى أمته حتى يرضى ، لما روى أنَّ النبى ﷺ ذكر أمته فقال :

« اللهم أمتى » ، وبكى فقال الله :

« يا جبريل .. اذهب إلى محمد واسـأله : ما يبكيك ؟ – وهو أعلم – فأتى جبريل رسول الله ﷺ وسأله ، فأخبره رسول الله بما قال . فقال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد وقل له إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك » .

وهكذا وعد الله (عزَّ وجل) نبيه ألاَّ يسوءه فى أمته ، فجعله صاحب اللواء المعقود والمقام المحمود والحوض المورود والشافع المشفع الذى لا ترد شفاعته ، ولا تضيع ضمانته عند مَنْ وعده ، فيقوم فلا يرجع إلا بحلية الإحسان وتاج الكرامة ، حيث يقول له ربه : يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعط(*) .

الشفيع يوم القيامة :

عن رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون لِمَ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فينظرهم الناظر ويسمعهم الدانى ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس : ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم .. أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا عند ربك ؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا فقال : إنَّ ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده

(*) مفاهيم يجب أن تصحح (محمد علوى المالكى) .

مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحًا فيقولون : يا نوح .. أنت أول الرسل إلى الأرض ، وقد سماك الله عبدًا شكورًا ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : إن ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومى ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى . اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول : إنَّ ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى كذبت ثلاث كذبات ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى ، فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول : إنَّ ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قد قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إنَّ ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبًا ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى محمد ﷺ ، وفى رواية : « فيأتون ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا عند ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فانطلق ، فآتى تحت العرش ،

فأقع ساجدًا لربى ، ثم يفتح الله علىّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتح الله به على أحد قبلى ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، سل تُعط ، واشفع تشـــفع ، فأرفع رأسى فأقـــول : أمتى يا رب ، أمتى يا رب ، أمتى يا رب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى(*) ».

(*) كتاب (الرسول ﷺ) الدكتور عبد الحليم محمود .

١٣

صاحب الحظوة عند ربه ﷺ

Looloo
www.dvd4arab.com

صاحب الحظوة :

يعتبر رسول الله ﷺ صاحب الحظوة الأولى عند ربه من بين الخلق جميعًا ، فلم يقرب الله أحدًا من خلقه بقدر ما قربه ولم يضف على أحد من المكانة والرفعة بقدر ما أضفى عليه ، ولم يمنحه من المنـــزلة والدرجات والخصوصيات بقدر ما منح نبيه ورسوله ﷺ .

ولإظهار هذه الحقيقة وتوكيدها نسرد بعضًا من ملامح هذا التقدير الذى لم يتكرر مع أحد من خلقه سواء كانوا من البشر أو من الملائكة فهو عليه السلام حقًا وصدقًا صاحب الحظوة عند ربه وهو صاحب الخصوصيات التى لم تتكرر مع أحد قبله أو بعده .

وهذه بعض مظاهر تلك الحظوة وملامح هذا التقدير والتكرير .

١ ـ الله يقربه :

قرب الله (عزَّ وجل) رســـوله من ذاته (عزَّ وجل) إلى حد لم يصله أحد من قبله حتى أمين الوحى وكبير الملائكة جبريل عليه السلام توقف وطلب منه أن يتقدم عند سدرة المنتهى ، وقال لرسول الله ﷺ : هنا مكانى .. لو تقدمت لاحترقت وأنت لو تقدمت لاخترقت ، واجتاز رسول الله عشرة معارج حتى وصل إلى عرش الرحمن وهو أعظم مخلوقات الله حيث فاض عليه من فضله وتجلى عليه بالرضا والرضوان وأراه الله (عزَّ وجل) من آياته ما يبهر العقول ، وهناك سمع رســـول الله صرير الأقـــلام ، وتشرَّف بالحضرة الإلهية وتمتع بالمناجاة ورأى ما لا عين رأت من قبل ، وشاهد ما لا يعلمه إلاَّ الله (عزَّ وجل) .

٢ ـ الله يفضله على جميع الرسل :

فضل الله رسوله على جميع الرسل فجعله إمامًا لهم ، حيث صلى بهم فى القدس خلال رحلة الإسراء والمعراج ، وصلاته بهم تعنى أفضليته على سابقيه من الرسل رغم تأخره ، كما تعنى أنه تسلم زمام القيادة الروحية للإنسانية ، وأنه صار حامل لواء دين الله الخاتم الذى يخاطب الإنسانية جمعاء ، والذى لن يقبل الله غيره ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ .

٣ ـ الله يضمن حفظ كتابه :

ضمن الله حفظ الكتاب الذى أنزل عليه وهو القرآن الكريم ، فقال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ لذلك فهو خلاف للكتب السماوية التى أصابها التغيير والتبديل ، فصار هو الكتاب الخالد الباقى المحفوظ والذى يقول عنه الله (عزَّ وجل) : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ .

٤ ـ كتابه أفضل الكتب :

لما كان الإسلام هو دين الله الذى لا يقبل غيره وأنه دين الله الكامل ونعمته التامة مصداقًا لقول الله (عزَّ وجل) : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾ فإن كتابه أفضل الكتب لأنه يتضمن مبادئ وأحكام أفضل دين وهو دين الله الذى لن يقبل الله سواه ، والصورة الكاملة التامة للإسلام هى القرآن الكريم لذلك فهو أفضل الكتب على الإطلاق . يقول (عزَّ وجل) :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ﴾

Looloo
www.dvd4arab.com

٥ ـ أول المسلمين :

رغم أنَّ رسول الله ﷺ آخـر الأنبيـاء ورغم أن الإسلام هو دين الله الخالد الذى يعنى إسلام الوجه لله ، وهو ما نادى به جميع الأنبياء فإن الله (عزَّ وجل) قد جعله عليه السلام أول المسلمين .

إنَّ آدم عليه السلام كان مسلمًا ولكنه لم يكن أول المسلمين ، وكذلك الأنبياء من بعده لم يكن واحد منهم أول المسلمين ، لأن الصورة الكاملة للإسلام الكامل التـام جاءت على يد رسول الله ﷺ لذلك فهو أول المسلمين . يقول تعالى : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ .

٦ ـ الجن يؤمنون به :

لقد تعدى الإيمان برسول الله البشر وآمنت به الجن كما آمن الإنس ، استمعوا إليه فصدقوه ، يقول الله تعالى :

﴿ وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنَّا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ .

٧ ـ كثرة المؤمنين به :

آمن برسول الله ﷺ وصدقه وتابعه أعداد هائلة لم يحدث أن آمن مثلها لنبى من الأنبياء ، فذكر الله (عزَّ وجل) أنَّ نوحًا عليه السلام على طول مدته ما آمن به إلا قليل ، وكذلك الحال مع غيره من الأنبياء ، فلم يؤمن بعيسى مثلاً غير الحواريين ، ولم يكن عددهم يزيد على عدد أصابع اليدين إلا قليلاً ، ولكن رسول الله استطاع بجهده وبشخصه وبعون الله له أن يؤلف القلوب ويؤثر

فى النفوس فكثر عدد المؤمنين به حتى إنه قد حج معه فى حجة الوداع مائة ألف من الصحابة ، أعدهم الإعداد السليم فكانوا قادرين من بعده على حمل لواء الإسلام ونشر التوحيد بين الأمم والشعوب .

٨ ـ الأسوة الحسنة :

ولَمَّا كان الإسلام دين الله الذى لن يقبل دينًا غيره ، ومحمد رسوله ﷺ هو أول المسلمين فقد أعده (عزَّ وجل) ليكون المثال الذى يقتدى به المسلمون من أجل أن يتحقق المجتمع الإسلامى المنشود وجعل الله رسوله الأسوة الحسنة لأتباعه والمؤمنين به فى كل عصر وفى كل مكان ؛ لأنه الإنسان الكامل الذى تحققت فيه كل الفضائل وتحلى بكل المحامد يقول تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا ﴾ .

فرسول الله ليس الأسوة فحسب ، وإنما الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا . وهو المثال الكامل للإنسانية عبر جميع العصور .

٩ ـ أول من يدخل الجنة :

يقول عليه السلام : « .... وأنا أول من يحرك حلقة الجنة ، فيفتح لى ، فيدخلنيها ومعى الفقراء » .

فهو عليه السلام أول من يطرق باب الجنة ، فيقول خازن الجنة رضوان :

مَنْ ؟ فيقول عليه السلام : محمد .

فيقول رضوان : أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« الجنة حرمت على الأنبياء وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى »

رواه الطبرانى فى الأوسط ، وقال الهيثمى : إسناده حسن (فى مجمع الزوائد)

Looloo
www.dvd4arab.com

١٠ ـ لا يعذب الله أمته وهو فيهم :

ومن خصوصيات رسول الله ﷺ أنّ الله أكرمه ، فلم يعذب الكافرين من أهل مكة المعاندين له الرافضين لرسالته الجاحدين لفضل الله ما دام فيهم ، وذلك رغم أنهم ارتكبوا نفس الأخطاء التى ارتكبتها الأمم السابقة ، والتى بسببها استحقوا الهلاك والعذاب يقول (عزَّ وجل) : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

ولذلك يقول على بن أبى طالب ﷺ :

كان فى الأرض أمانان من عذاب الله ، وقد رفع أحدهما (يقصد وفاة الرسول) فدونكم الآخر (يقصد الاستغفار) فتمسكوا به .

١١ ـ طاعته من طاعة الله :

وجعل الله (عزَّ وجل) طاعة الرسول ﷺ من طاعته سبحانه ، وقرنها بطاعته (عزَّ وجل) فيقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ .

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومَنْ تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا ﴾ .

ويقول أيضًا : ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب ﴾ .

وبين سبحانه أنه لا ينطق عن الهوى ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم فقال (عزَّ وجل) :

﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضلَّ صاحبكم وما غوى ، إنْ هو إلاَّ وحى يوحى ﴾

ولذلك هيَّأ الله له مَنْ يحفظ سيرته وأخباره حتى تكون مشاعل نور وهداية للبشر فى كل وقت وفى كل مكان .

١٢ ـ حبه يجلب حب الله ومغفرته :

وجعل الله ، (عزَّ وجل) حب رسول الله ﷺ من حب الله ، وحبه يجلب حب الله ، ويجلب أيضًا مغفرته .

يقول (عزَّ وجل) :

﴿ فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ .

١٣ ـ تشدُّ الرِّحالُ إلى مسجده :

أكرم الله (عزَّ وجل) رسوله من خلال إكرامه لمسجده فى المدينة ، فالمساجد متساوية فى الفضل والإجلال ، ولا فائدة فى التعب بالسفر إلى غيرها إلاَّ مساجد ثلاثة لأنَّها لها مزيد من الفضل ، يقول عليه السلام :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ؛ المسجد الحرام ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » ، ويقول أيضًا :

« أنا خاتم الأنبياء ، ومسجدى خاتم مساجد الأنبياء أحق المساجد أن يزار وتشد إليه الرواحل : المسجد الحرام ، ومسجدى ، صلاة فى مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلاَّ المسجد الحرام(*) » .

١٤ ـ الله يطعمه :

يقول رسول الله ﷺ عن نفسه فى الحديث الصحيح :

« إنى لست كهيئتكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » .

١٥ ـ قلبه لا ينام :

ويقول ﷺ فى الحديث الصحيح : « تنام عيناى ولا ينام قلبى » .

(*) رواه البزار فى مجمع الزوائد ج ٤ .

Looloo
www.dvd4arab.com

١٦ ـ يرى من خلفه :

فى الصحيحين من حديث أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

« هل ترون قبلتى ها هنا ؟ فوالله ما يخفى علىَّ خشوعكم ولا ركوعكم ، إنى لأراكم من وراء ظهرى » .

١٧ ـ يعطيه الله ما لم يعط غيره من الأنبياء :

ومن مظاهر حظوته عند ربه أنَّه (عزَّ وجل) أعطاه ما لم يعط أحدًا من الأنبياء من قبل ، ومما أعطاه ربه :

(ا) **الوسيلة** : وهى أعظم درجة فى الجنة ، أعدها الله (عزَّ وجل) لنبيه عليه السلام .

(ب) **الكوثر** : وهو نهر فى الجنة يجرى من تحت العرش ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ .

(جـ) **الحوض** : وهو الذى يشرب منه المسلمون يوم القيامة ، يوم يظمأ الناس فيكون العرق إلى الركب ، ويصل إلى الأوساط والأكتاف ، كل حسب عمله ، يشرب حينئذ المسلمون من ذلك الحوض بأكواب يقدمها إليهم رسول الله ﷺ ، فلا يظمأ مَنْ شرب منه بعد ذلك أبدًا .

(د) **المقام المحمود والشفاعة** : وذلك يوم القيامة ، إذ أنه ﷺ يشفع عند الله (عزَّ وجل) حتى يخرج عصاة المسلمين من النار ، ولا يبقى فيها أحد يقول (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) إذ لا يخلد العاصى فى النار ، ويبقى فيها من آمن بجميع الأنبياء ولم يؤمن بمحمد عليه السلام .

(هـ) **النصر بالرعب** : نصره الله بالرعب كما نصر جنده وأتباعه ، وذلك إلى يوم القيامة بأن يبث الله الرعب فى قلوب أعدائهم مسيرة شهر : ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا ، ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ .

(و) **الغنائم تحل له** : ولم تحل لأحد من الأنبياء من قبله : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيبًا ﴾ ، وبالنسبة للأمم السابقة فمنهم مَنْ لم يؤذن لهم بالجهاد أصلاً ، ومنهم مَنْ أذن لهم بالجهاد ولكن إذا غنموا شيئًا لا يحل لهم أكله والانتفاع به ، فكانت تنزل عليه نار من السماء فتحرقه .

(ز) **أعمال أمته تعرض عليه** : ذكر الفقيه العلامة منصور بن يونس البهوتى الحنبلى أنَّ رسول الله ﷺ قد عرض عليه الخلق من آدم إلى ما بعده كما علم الله آدم الأسماء كلها ، ويستدل فى ذلك بحديث الديلمى : (مثلت لى الدنيا بالماء والطين فعلمت الأشياء كلها) كما يذكر أنه عرض عليه أمته بأسرهم حتى رآهم ، ويستدل فى ذلك بحديث الطبرانى : (عرضت على أمتى البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها صوروا لى الماء والطين حتى إنى لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه) ، وفى حديث أحمد وغيره : (أدريت ما تلقى أمتى بعدى وسفك بعضهم دماء بعض) .

(ح) **جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً** : ولم يكن ذلك لأحد من الأنبياء من قبل : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدًا طيبًا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ .

وكانت الأمم السابقة يصلون فى الكنائس والبِيَع .

Looloo
www.dvd4arab.com

١٨ ـ الله يقدمه رغم تأخره :

يروى أنَّ رسول الله ﷺ بكى ذات يوم حين استمع إلى كلام سمعه فى مقام الخوف والخشية ، فقال له عمر بن الخطاب ﷺ :

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضلك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم فقال :

﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ .

فرسول الله يذكره ربه ، حين يتحدث عن الأنبياء فى البداية رغم أنه بعث فى النهاية ، وهذا أمر يلفت نظر العرب أرباب البلاغة الذين يتذوقون القرآن ويدركون أسراره ، فيدرك عمر ﷺ كما أدرك غيره أنَّ الله (عزَّ وجل) يذكر أولاً الأعلى مقامًا والأرفع منـــزلة ، ثم مَنْ يأتى بعده حسب الترتيب فى القدوم أو حسب أى اعتبار آخر .

١٩ ـ الله يجعله رحمة للعالمين :

كان الله يرسل الأنبياء لأقوامهم خاصة من أجل هدايتهم فى وقت معلوم وكل زمان محدد ، ولكنه أرسل رسولنا للكون كله رحمة وللبشر جميعًا هاديًا ونذيرًا ، ولقد امتدت رحمته لا لتشمل عالمه الذى يعيش فيه ولكن كان رحمة لجميع العالمين(*) فقال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين ﴾ ويقول أيضًا : ﴿ وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

ولقد سبقت الإشارة إلى أن رسالته قد امتدت إلى عالم الجن كما شملت عالم الإنس ، وهذا أمر لم يسبق إليه نبى آخر .

(*) عالمون جمع عالَم .

٢٠ ـ الله يجعله سيد ولد آدم :

يقول عليه السلام :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيـــامة ، وأول مَنْ يَنْشق عنـــه القبر ، وأول شافع وأول مشفع » .

فرسول الله سيد ولد آدم يوم القيامة أى فى الآخرة كما ورد فى حديثه ، ولكنه أيضًا سيدهم فى الدنيا ؛ لأن السيد هو الذى يفوق قومه فى الخير فيخفون إليه فى شدائدهم ونوازلهم ، فيعاون المحتاج ويساعد الضعيف ويواسى المنكوب ، وهكذا كان رســـول الله فى الدنيا بل كان رحمة لا لقومه فقط وإنما كان رحمـــة للعالمين ، كما أعلن ربه ذلك فى قوله : ﴿ وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين ﴾ ، وكيف يكون رحمة للعالمين وفيهم البشر وغير البشر ولا يكون سيدًا لولد آدم فى الدنيا ، ولكنه عليه السلام خص يوم القيامة بالذكر لأن مكانته وجاهه وعظمته تظهر يوم القيامة ، ولا يبقى معاند أو مستكبر أو جاهل إلاَّ ويرى مكانته وسيادته يوم القيامة ، وذلك بخلاف الدنيا حيث يظهر فيها المكابرون والمنازعون والمنافسون ، ويقول رسول الله ﷺ أيضًا :

« أنا سيد ولد آدم ولا فخر »

فهو عليه السلام يردد حقيقة أمره ربه بإعلانها فى قوله الكريم فى سورة الضحى : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

فهو عليه السلام مطالب بتبليغ ذلك لأمته ؛ ولذلك ينفى عليه السلام أن يكون ذلك من قبيل الفخر لأنه عليه السلام ليس فى حاجة لفخر ، فلم يكن متفاخرًا أو متعاليًا ؛ لأنه عليه السلام قد حذر من الفخر والغرور فهو بحق وصدق سيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة .

www.dvd4arab.com

مسك الختام

إنَّ مظاهر حظوة رسول الله ﷺ لدى ربه أكثر من أن تحصى ، وأجل من أن تحصر ، وربما كان مسك الختام فى الحديث عن حظوته عند ربه وما أضفاه عليه من رفعة وسمو ، وما منحه من نعمة وطالبه (عزَّ وجل) أن يتحدث عنها ويعلنها : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ مسك الختام أن نتذكر بعضًا مما حدث به الرسول ﷺ استجابة لأمر ربه فى أن يتحدث عن نعمه(*) .

يقول عليه السلام : « أنا خير أصحاب اليمين ، أنا خير السابقين ، أنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر » (رواه الترمذى)

وقال عليه السلام :

« أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر » (رواه الترمذى والدارمى)

وعن أنس ﷺ قال عليه السلام : (أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا ، وأنا مبشرهم إذا يئسوا الكرامة ، والمفاتيح يومئذ بيدى ، ولواء الحمد يومئذ ، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ، يطوف على ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور) . رواه الترمذى والدارمى

وعن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال :

« أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ، ثم أقوم على يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى » (رواه الترمذى)

وفى حديث أبى سعيد قال :

قال رسول الله ﷺ :

(*) (مفاهيم يجب أن تصحح) تأليف محمد علوى المالكى .

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلاَّ وتحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عن الأرض ولا فخر » . (رواه الترمذى)

ويقول جبريل عليه السلام : « قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ، ولم أر بنى أب أفضل من بنى هاشم » .

رواه البيهقى وأبو نعيم والطبرانى عن عائشة رضى الله عنها .

وعن أنس ﷺ : « إنَّ النبى ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به فاستصعب عليه ، فقال جبريل : بمحمد تفعل هذا ؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه ، فارفض عرقًا » . رواه الشيخان

* * *

ومما يروى فى هذا المقام ما روى عن ابن عباس ﷺ أنه قال :

جلس ناس من الصحابة يتذاكرون وهم ينتظرون خروج رسول الله ﷺ ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم . قال بعضهم :

عجبًا أنَّ الله اتخذ من خلقه خليلاً (اتخذ إبراهيم خليلاً) وقال آخر : ماذا بأعجب من عيسى كلمة الله وروحه ؟

وقال آخر : ماذا بأعجب من موسى كلمه الله تكليمًا ؟

وقال آخر : ماذا بأعجب من آدم ، اصطفاه الله عليهم ؟

فسلَّم عليهم رسول الله ﷺ وقال : « سمعت كلامكم وعجبكم » ، ثم قال :

« ألا وإنى حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر ، وأنا أول شافع ومشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح لى فيدخلنيها ومعى الفقراء » .

* * *

www.dvd4arab.com

وفى رحلة المعراج حين التقى رسول الله ﷺ بربه (عزَّ وجل) ، ناداه : يا محمد .. فتقدم عليه السلام وحيا ربه بالتحيات المباركة ، فقال الله (عزَّ وجل) : سل يا محمد .. فقال :

« يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً ، وأعطيته ملكًا عظيمًا ، وكلمت موسى تكليمًا ، وأعطيت داود ملكًا عظيمًا ، وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكًا عظيمًا ، وسخرت له الجن والإنس والشياطين والرياح ، وأعطيت له ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى ابن مريم التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ، وأعذته وأمه من الشيطان ، فلم يكن له عليهما سبيل ، فقال ربه (عزَّ وجل) :

قد اتخذتك خليلاً وحبيبًا فأنت المكتوب فى التوراة ، محمد حبيب الرحمن ، أرسلته للناس كافة ، وجعلت أمتك هم الأولين وهم الآخرين ، وجعلت أمتك لا يجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلتك أول النبيين خلقًا وآخرهم بعثًا ، وأعطيتك سبعًا من المثانى ولم أعطها لنبى قبلك وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز من تحت العرش لم أعطها لنبى قبلك ، وجعلتك فاتحًا وخاتمًا » .

* * *

حقًا إنَّ رسول الله ﷺ صاحب الحظوة عند ربه وصاحب الخصوصيات التى لم يعطها الله لأحد قبله ، ولم يمنحها لأحد سواه ، ﷺ .

* * *

١٤

صاحب التكريم فى القرآن الكريم

صلى الله عليه وسلم

Looloo
www.dvd4arab.com

ثناء عظيم

إنَّ من المجالات التى يبدو فيها تكريم الله (عزَّ وجل) لرسوله ﷺ ورفعه لقدره ، وإعلاؤه لشأنه حديثه عنه فى القرآن الكريم ، إذ هو حديث يفيض بالتكريم والتقدير والتشريف والثناء ، ولم يتحدث الله (عزَّ وجل) عن واحد من أنبيائه الآخرين بمثل ما تحدث به عن نبيه محمد ﷺ من تقدير وإعزاز وإكرام ، فإذا كان الله (عزَّ وجل) قد منحه بالفعل كل الحظوة وكساه حلل الرفعة ، فإنه سبحانه قد رفع قدره أيضًا بالحديث عنه كما رفعه بالفعل ، فنجد حديث القرآن الكريم حافلاً بتكريمه وتقديره حريصًا على إعلاء قدره والإشادة بفضله بين العالمين إلى أبد الآبدين ؛ لأن القرآن هو كتاب الله الخالد ، والذكر الباقى إلى آخر الزمان ، فمدح الله (عزَّ وجل) لرسوله وتقديره لشخصه هو ثناء أبدى وتقدير أزلى .

ونشير فيما يلى إلى بعض مظاهر تقدير الله وتكريمه لرسوله فى القرآن الكريم .

١ ـ توجيه النداء إليه :

ورد فى القرآن الكريم نداء من الله (عزَّ وجل) إلى أنبيائه ، فكان سبحانه يناديهم بأسمائهم وذلك خلافًا للأسلوب الذى اتبعه سبحانه فى ندائه لرسول الله ﷺ .

إنه سبحانه ينادى نبى الله آدم عليه السلام فيقول :

﴿ ويا **آدم** اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدًا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ . (البقرة ـ ٣٥)

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ ويا **آدم** اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ . (الأعراف ـ ١٩)

وينادى **إبراهيم** عليه السلام فيقول :

﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا **إبراهيم** قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ... ﴾ . (الصافات ـ ١٠٣)

وينادى **موسى** عليه السلام فيقول :

﴿ فلما أتاها نودى يا موسى ﴾ . (طه ـ ١١)

ويقول : ﴿... وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى﴾. (طه ـ ١٧)

ويقول : ﴿ ... ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ . (طه ـ ٤٠)

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ .. قال يا **موسى** إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين ﴾. (الأعراف ـ ١٤٤)

وينادى **داود** عليه السلام فيقول :

﴿ يا **داود** إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ . (ص ـ ٢٦)

وينادى **زكريا** عليه السلام فيقول :

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًا ﴾ (مريم ـ ٧)

وينادى **يحيى** عليه السلام فيقول :

﴿ يا **يحيى** خذ الكتاب بقوة ﴾ . (مريم ـ ١٢)

وينادى **عيسى** ابن مريم عليه السلام فيقول :

Looloo
www.dvd4arab.com

﴿ وإذ قال الله يا **عيسى ابن مريم** اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلاً ﴾ (آل عمران – ٤٩)

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ وإذ قال الله يا **عيسى ابن مريم** أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق .. ﴾ (المـائدة ــ ١١٦)

هكذا نادى الله على أنبيائه فى القرآن الكريم أما بالنسبة لرسول الله محمد ﷺ فإنه جل وعلا لم ينادِ عليه باسمه ، وإنما كان نداؤه وخطابه بأحب الألقاب والصفات إليه وهى أنه نبى الله ورسول الله .

ونذكر بعضًا من نداء الله إليه .

يقول تعالى مخاطبًا رسوله :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ . (المـائدة – ٦٧)

ويقول تعالى : ﴿ يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك .. ﴾ (الأحزاب ــ ٥٠)

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً ﴾. (الأحزاب – ٢٨)

ويقول تعالى : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ﴾ . (التحريم – ١)

ويقول تعالى : ﴿ يا أيها النبى إنَّا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﴾ . (الأحزاب – ٤٥ ، ٤٦)

وهكذا كان نداء الله (عزَّ وجل) لرسوله محمد ﷺ فى القرآن الكريم . وهو نمط من التكريم لم ينله إلاَّ رسول الله ﷺ وهذا يدل على الكم الهائل من الإجلال الذى أضفاه عليه ربه .

٢ ــ عظم الثناء عليه :

تناول القرآن الكريم الحديث عن رسول الله ﷺ فى كثير من الآيات ، والملاحظ أنَّ هذا الحديث يتوجه فى الكثير منه بالمدح والثناء على شخصه الكريم ، وإبراز فضله والتنويه بعالى قدره ، وعظيم شرفه ، ونشير إلى بعض هذه الآيات الكريمة التى تؤكد هذه الحقيقة :

﴿ وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين ﴾ . (الأنبياء – ١٠٧)

فهو عليه السلام رحمة ليس لعـالم واحـد ، وإنَّما لكل العالمين بمن فيها وما فيها من مخلوقات .

ويقول تعالى :

﴿ وادع إلى ربك إنَّك لعلى هدى مستقيم ﴾ . (الحج – ٦٧)

فجعله الله هاديًا إلى طريق الخير والاستقامة .

ويقول تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله مَن اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ . (المـائد – ١٥ ، ١٦)

لقد جعله الله نورًا يبدد ظلمات الجهل والضلال

ويقول تعالى فى سورة القلم :

Looloo
www.dvd4arab.com

﴿ ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإنَّ لك لأجرًا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

ويقول تعالى فى سورة التوبة :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ ، فلم يجمع الله (عزَّ وجل) لنبى من أنبيائه اسمين من أسمائه إلا لرسوله ﷺ ، سمَّاه رءوفًا ، وسماه رحيمًا . فقال تعالى عن ذاته : ﴿ إنَّ الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ ، وقال عن نبيه : ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ .

ويقول (عزَّ وجل) فى سورة الأحزاب :

﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﴾ .

فهو عليه السلام سراج منير .

وهكذا يتردد اسمه ﷺ ويترادف الحديث عنه فى آيات القرآن الكريم مقرونًا بالمدح مرتبطًا بالثناء والإكرام من رب العالمين .

٣ ـ الله يقسم بحياته :

من أقوى الأدلة على ما تمتع به رسول الله ﷺ من منـــزلة رفيعة عند ربه تؤكد أفضليته المطلقة على سائر الخلق ، أنَّ الله (عزَّ وجل) أقسم بحياته فقال : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾، أى وعيشك وحياتك وبقائك ، هذا ما أقسم به الله ، أمَّا المقسم عليه فهو أن الكفار فى سكرتهم يعمهون يقول ابن عباس رضى الله عنه :

ما خلق الله تعـــالى وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليـــه من محمد ﷺ وما سمعت أن الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره .

٤ ـ ملاحظة مقامه عند التعامل معه :

أمر الله (عزَّ وجل) المؤمنين فى القرآن الكريم أن يعرفوا قدر رسوله الكريم ؛ ليكون تعاملهم معه على قدر ما يعرفون عنه من فضل ورفعة .

يقول (عزَّ وجل) : ﴿ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه ﴾ . وهكذا ارتبط الإيمان بالله بالإيمان برسوله ، وارتبط الإيمان بالرسول بالسلوك الكريم معه ، والتأدب فى معاشرته فى إطار من الإجلال والتعزيز والتوقير .

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ .

فينهى الله (عزَّ وجل) المسلمين عن أن يتقدموا بين يدى الرسول بالقول وسوء الأدب ، كما ينهاهم (عزَّ وجل) عن أن يسبقوه بالقول ، فلا يتكلموا قبل أن يتكلم ، وأن يحسنوا الاستماع إليه إذا تحدث ، كما نهاهم عن أن يبدوا رأيًا قبل أن يبدى رأيه ، وأن يفتوا فى موضوع قبل أن يستمعوا له ، إذ إنه عليه السلام له الرأى الأول ، وعليهم أن يلتزموا بطاعته .

يقول (عزَّ وجل) :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ .

www.dvd4arab.com

فأكد الله سبحانه سمو مكانة رسـول الله ﷺ ، ولفت أنظار الصحابة رضوان الله عليهم إلى ضرورة التأدب معه فى مجلسه ، وخلال محادثته ، فما ينبغى أن يكون فى المجلس صوت أعلى من صوته ، وإنما ينبغى أن تخفت الأصوات إجلالاً له واحترامًا وتقديرًا ؛ ولذلك يقـول (عزَّ وجل) مادحًا الذين يتأدبون فى الحديث مع رسول الله : ﴿ إنَّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا ﴾.

فإذا كان رسول الله ﷺ قد بلغ فى تواضعه حدًّا يرفض معه أن يتميز على أصحابه ، فإن الله (عزَّ وجل) لا يرضى إلاَّ أن يكون له جلاله وهيبته وتوقيره ، فما ينبغى أن يناديه أحد باسمه ، كما فعل جماعة من بنى تميم حين حضروا إلى بيته صائحين : يا محمد اخرج إلينا . لا يقر الله ذلك لتعارضه مع ما للرسول من قـدر وفضل ، وعلَّم سبحانه الناس أن ينادوه بأشرف ما يجب أن ينادى به : يا رسول الله ، يا نبى الله .

ولقد استجاب الصحابة لهذا التوجيه الإلهى الكريم ، فهذا عمرو بن العاص يقول : « .. ما كنت أطيق أن أملأ عينى من الرسول إجلالاً له واحترامًا ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينى منه » .

وكان الصحابة يجلسون فى مجلســه كأن على رءوسهم الطير إجلالاً واحترامًا ، فكان إذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يطيلون إليه النظر تعظيمًا له ، لذلك قال عروة بن مسعود لقريش حين بعثته يستطلع أمر المسلمين :

« ... يا معشر قريش .. إنى جئت كسرى فى ملكه ، وجئت قيصر فى ملكه ، وجئت النجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكًا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه » .

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إنَّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله إنَّ الله غفور رحيم ﴾ .

فهذا تأديب مـن الله (عزَّ وجل) للصحابة أن يلتزموا طاعة الرسول ومرافقتـه والالتزام بأوامره والالتفـاف حوله ، وعدم الانصراف عنـه إلاَّ بإذنه ، والتأدب بالأدب الجميل والسلوك الطيب حين يكونون معه .

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ .

فرسول الله أقرب وأحب من الناس جميعًا ، ولا ينصر المسلم من يعادونه ولو كان من ذوى القربى .

٥ ـ التأدب فى التعامل مع بيوت النبى :

وكما أحـاط الله (عزَّ وجل) رسوله الكريم ﷺ فى حديثه عنه فى القرآن الكريم بالإجلال والتقدير أحاط أيضًا نساءه وبيوته بالاحترام والتوقير حيث أمر المسلمين بتقدير نسائه وتوقيرهن واحترامهن ، وأى إجلال وتوقير أفضل من جعلهن أمهات المؤمنين ، فيقول سبحانه :

Looloo
www.dvd4arab.com

﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ .

ثم أرشد سبحانه المسلمين إلى الأسلوب الكريم فى التعامل مع بيوت رسول الله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلاَّ أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إنَّ ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا ، إن ذلكم كان عند الله عظيمًا ﴾ .

تكريم عام لكل ما حوله

كتب السيد / سليمان سامى محمود شيخ الطريقة الخلوتية الحمدية فى مجلة الأشراف يقول(*) .

« ... وإن سيدنا رسول الله ﷺ هو سيد الوجود وأشرف موجود ، وأحب الخلق إلى الملك المعبود ، ولذلك كرمه تكريمًا لم ينله أحد من العالمين ، فذكر فى القرآن الكريم اسمه وبلده ، وعصره ، وأمته ، ونساءه وأصحابه ، وصوته ، ولسانه ، وعينه ، وبصره ، وفؤاده ، وقلبه ، ووجهه ، وظهره ، وأذنه ، وعقله ، وملابسه ، وحجراته ، وكل ما يتصل به صلوات الله وسلامه عليه ، فأى تكريم بعد هذا التكريم العظيم ، وأى محبة بعد هذه المحبة الإلهية !

وفيما يلى بعض الآيات القرآنية التى تشير إلى ذلك :

(*) العدد ٢١ أكتوبر ٢٠٠٢

ذكر فى القرآن الكريم **اسمه** ﷺ . قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ . (الفتح ــ ٢٩)

وذكر **بلده** التى نشأ فيها ، وأقسم بها تكريمًا لحلوله فيها ، قال الله تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ . (البلد ــ ١، ٢)

وذكر **عصره** الذى كان يعيش فيه وأقسم به تكريمًا لذاته الشريفة وحياته العظيمة . قال الله تعالى : ﴿والعصر إنَّ الإنسان لفى خسر﴾. (العصر ــ ١، ٢)

وذكر **أمته** وجعلها خير الأمم ، وأشهدها على الأمم جميعًا تكريمًا وتشريفًا لمقامه السامى ولمنزلته الرفيعة . قال الله تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ . (آل عمران ــ ١١٠)

وذكر **نساءه** صلوات الله وسلامه عليه ، وفضلهن على نساء العالمين ، وجعلهن أمهات المؤمنين مراعاة لحرمته ﷺ . قال الله تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ﴾ . (الأحزاب ــ ٦)

وذكر **أهل بيته** وطهرهم وأعلى مقامهم إكرامًا لذاته الشريفة ومكانته العالية عند ربه سُبحانه ، وأمر المؤمنين ببرهم ومودتهم وفاء لمقامه العظيم ورسالته الباقية . قال تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا ﴾ . (الأحزاب ــ ٣٣)

وحث على برهم ومودتهم . قال تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرًا إلاَّ المودة فى القربى ﴾ . (الشورى ــ ٢٣)

وذكر **أصحابه** ﷺ وفضَّلهم على غيرهم ، وما ذلك إلاَّ لصحبتهم لسيد العالمين ﷺ . قال الله تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا ﴾ (الفتح ــ ٢٩)

Loolgo

وكذلك ذكر بعضهم ، سيدنا أبا بكر الصديق ﷺ فقال تعالى : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنَّ الله معنا ﴾ . (التوبة ــ ٤٠)

وذكر **صوته** ﷺ ونطقه ولسانه الشريف ، وكرم صوته حتى جعل رفع الصوت فى حضرته صلوات الله وسلامه عليه محبطًا للأعمال . قال الله تعالى : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ . (الحجرات ــ ٢)

وكرم **نطقه** الشريف بقوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحى يوحى ﴾ . (النجم ٣ ، ٤)

وذكر **لسانه** الشريف بقوله تعالى : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ (مريم ــ٩٧)

وذكر **يديه** ﷺ وجعل يده الشريفة نيابة عن يد الحق تبارك وتعالى فقال تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ﴾ (الفتح ــ ١٠)

وذكر **بصره** ﷺ وحفظه من الزيغ والطغيان ، وأنه بصر مطهر محفوظ بالعناية الإلهية . قال الله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾. (النجم ــ ١٧)

وذكر **عينيه** الشريفتين بقوله تعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ . (طــه ــ ١٣)

وذكر **فؤاده** وكرمه تكريمًا عظيمًا . قال الله تعالى :

﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ . (النجم ــ ١١)

وكذلك ذكر **قلبه** الشريف بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ . (الشعراء ــ ١٩٣، ١٩٤)

وذكر **وجهه** ﷺ ، واستجاب لتقلبه فى السماء ، قال الله تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾. (البقرة ــ ١٤٤)

وذكر **صدره** صلوات الله وسلامه عليه وأن الله شرحه تكريمًا وتشريفًا لمقامه العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾. (الشرح ــ ١)

وكذلك ذكر **ظهره** الشريف . قال الله تعالى :

﴿ ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ﴾ . (الشرح ــ ٢، ٣)

وذكر **أذنه** ﷺ وأنها أذن خير للمؤمنين . قال تعالى : ﴿ قل أذن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾. (التوبة ــ ٦١)

خاتمة :

هكذا تحدث الله (عزَّ وجل) فى كتابه الكريم عن رسول الله ﷺ ، وهو حديث يفيض بالإجلال والتقدير من رب العالمين ، وهكذا أنزله الله (عزَّ وجل) المنزلة الشريفة فى الذكر الحكيم الذى ضمن سبحانه حفظه وبقاءه ؛ ليبقى ثناء الله وتكريمه لرسوله خالدًا باقيًا ينطق بما له ﷺ من رفيع القدر وجليل المكانة .

Looloo
www.dvd4arab.com

١٥

صاحب المنزلة الأولى فى العبودية

حديث التكريم :

إنَّ حديث الله (عزَّ وجل) عن رسوله ﷺ فى القرآن الكريم له أسلوبه الخاص الذى يوحى بما تمتع به عليه السلام من مكانة عالية ومنـــزلة رفيعة عند ربه .

فهو ـــ سبحانه ـــ إذا خاطبه لا يناديه باسمه ، كما نادى غيره من الأنبياء ، وإنما يناديه بأحب الألقـــاب والصفات إليه (يا أيها النبى) ، ويقسم الله (عزَّ وجل) بحياته ، ولم يقسم بحياة أحد غيره ، ويجعله سبحانه أول المسلمين ويأمره أن يعلن ذلك ، فيقول (عزَّ وجل) : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ .

وذلك رغم أن دين الله هو الإسلام منذ بداية إشراقات السماء بالنبوات ، ورسالة رسول الله أخراها وخاتمتها ، فهو الأول بين المسلمين .

ويصفه ربه (عزَّ وجل) بأنه رءوف رحيم فى قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ ، وهكذا جمع الله فى وصفه اسمين من أسمائه ، وهذا لم يحدث مع نبى آخر .

وهكذا يلمح المتصفح لكتاب الله التقدير الكبير لرسول الله فى آياته ، مما يؤكد أنه عليه السلام له المنـــزلة الكبرى عند ربه .

اختلاف أسلوب الحديث :

ومما يلفت النظر فى حديث الله (عزَّ وجل) عن رسوله ﷺ فى القرآن الكريم أنَّه خصه دون غيره من الأنبياء الكرام فجعله (عبده) وتحدث عنه بصفة العبودية دون أن يعقبها بذكر اسمه عليه السلام ، مثال ذلك قوله (عزَّ وجل) : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ .. فهو (عزَّ وجل) يتحدث عن رسول الله مشيرا إلى واقعة الإسراء

Looloo
www.dvd4arab.com

والمعراج ، وقال (عبده) ولم يقل (عبده محمد) ، خلافًا لحديثه (عزَّ وجل) عن غيره من الأنبياء والرسل ، فهو (عزَّ وجل) يذكر الكلمتين يقول (عبده) ، ثم يذكر اسم النبى الذى يتحدث عنه ، ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسَّنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ .

إنَّ المقارنة بين الآيتين الكريمتين توضح اختلاف لغة الحديث ، فيذكر الله (عزَّ وجل) لفظ (عبده) فيستحضر قارئ القرآن فى ذهنه شخص رسول الله محمد ﷺ ، ولكن حين يتحدث عن غيره من الأنبياء يذكر اسم النبى بعد ذكر صفة العبودية ، رغم أن الأنبياء جميعًا والبشر كلهم عباد الله .

حديث القرآن عن الرسول :

نذكر فيما يلى بعض الآيات القرآنية التى يتحدث فيها الله (عزَّ وجل) عن رسوله محمد عليه السلام لتأكيد هذه الحقيقة .

قال تعالى :

١ ــ ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده .. ﴾ (الإسراء ــ ١)

٢ ــ ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا ﴾ . (الكهف ــ ١)

٣ ــ ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ﴾ . (الفرقان ــ ١)

٤ ــ ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ . (الزمر ــ ٣٦)

٥ ــ ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ . (النجم ــ ١٠)

٦ ــ ﴿ هو الذى ينــزل على عبده آيات بينات ﴾ . (الحديد ــ ٩)

٧ ــ ﴿ قل الله أعبد مخلصًا له دينى ﴾ . (الزمر ــ ١١)

٨ ــ ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدًا ﴾ (الجن ــ ١٩)

٩ ــ ﴿ أرأيت الذى ينهى عبدًا إذا صلى ﴾ . (العلق ــ ١٠)

١٠ ــ ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ . (البقرة ــ ٢٣)

١١ ــ ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ . (الأنفال ــ ٤١)

حديث القرآن عن غيره من الأنبياء :

١ ــ يقول الله تعالى متحدثًا عن نوح عليه السلام :

﴿ ذرية منْ حملنا مع نوح إنَّه كان عبدًا شكورًا ﴾ (الإسراء ــ ٣)

٢ ــ ويقول تعالى متحدثًا عن الخضر عليه السلام :

﴿ فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمًا ﴾ (الكهف ــ ٦٥)

٣ ــ ويقول تعالى متحدثًا عن داود عليه السلام :

﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ (ص ــ ١٧)

٤ ــ ويقول تعالى متحدثًا عن أيوب عليه السلام :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسَّنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ (ص ــ ٤١)

www.dvd4arab.com

٥ ــ ويقول تعالى متحدثًا عن نوح عليه السلام :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ (القمر ــ ٩)

٦ ــ ويقول تعالى متحدثًا عن زكريا عليه السلام :

﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ (مريم ــ ٢)

٧ ــ ويقول تعالى متحدثًا عن نوح ولوط عليهما السلام :

﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ (التحريم ــ ١٠)

٨ ــ ويقول تعالى متحدثًا عن يوسف عليه السلام :

﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ (يوسف ــ ٢٤)

٩ ــ ويقول تعالى متحدثًا عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ﴾ (ص ــ ٤٥)

١٠ــ ويقول تعالى متحدثًا عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ . (الصافات ــ ١١١)

١١ــ ويقول تعالى متحدثًا عن موسى وهارون عليهما السلام :

﴿ إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ . (الصافات ــ ١٢٢)

١٢ــ ويقول تعالى متحدثًا عن إلياس عليه السلام :

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ . (الصافات ــ ١٣٢)

شرف العبودية لله :

وهكذا يتبين لنا من حديث الله (عزَّ وجل) فى القرآن الكريم أنه سبحانه وتعالى اختار أن تكون صفة العبودية على إطلاقها لرسول الله ﷺ ، وإذا أطلقت فى القرآن على غيره ارتبطت باسمه ، ولقد كان رسول الله ﷺ بدوره حريصًا على هذا الشرف ، فحين كرَّمه الله (عزَّ وجل) بالإسراء والمعراج ، ورفعه إلى مقام المناجاة ، وهو المقام الذى لم يبلغه أحد سواه من الأنبياء أو الملائكة المقربين ، خرَّ ساجدًا بين يدى الله (عزَّ وجل) ، وحدثه ربه قائلاً :

يا محمد .. بم نشرفك ؟ قال عليه السلام : يا رب .. بنسبتى إليك بالعبودية ، فأكرمه الله (عزَّ وجل) بقوله : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ... ﴾

فنسب الله (عزَّ وجل) إليه العبودية تشريفًا لقدره .

صاحب المنزلة الأولى فى العبودية :

وإذا كان البشر كلهم عبيدًا لله (عزَّ وجل) ، فإن ذكر كلمة عبد نكرة صارت تعنى محمدًا عليه السلام وحده دون غيره ؛ لأنه الإنسان الذى أحسن العبودية ، وبذلك استحق أن يكون عبدًا لله دون تخصيص ؛ إذ إنها تعنيه دون سواه .

يقول دقماق (أحد كبار العلماء) :

إن أرقى منزلة للإنسان أن يكون عبدًا لله ، وكلما صفت العبودية ارتقت الإنسانية وصار العبد سيدًا لغيره .

Looloo www.looloo.com

وبذلك يكون الرسول ﷺ هو الإنسان الذى استطاع أن يحقق العبودية لله فى أرقى صورها وأكمل أشكالها فى شخصه الكريم ، وكان ذلك أيضًا استجابة لأمر ربه ومشيئته حيث يقول سبحانه :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ ، فصارت صلاته – عليه السلام – ونسكه ومحياه ومماته ، وصار صمته وكلامه ، ونومه ويقظته ، وليله ونهاره ، حتى أنفاسه ، التى تتردد فى صدره ، صار كل ذلك عبادة لله رب العالمين ، وبذلك استحق عليه السلام أن يكون صاحب المنـــزلة الأولى فى العبودية لله (عزَّ وجل) ، وبذلك استحق أيضًا أن يكون سيد الخلق أجمعين الأولين والآخرين .

١٦

النبى الخاتِم

ﷺ

Looloo
www.dvd4arab.com

دين الله واحد :

شمل الله (عزَّ وجل) الإنسان منذ خلقه برحمته ، فأرسل إليه أنوار هدايته التى تمثلت فى دينه القويم ؛ إذ إنَّ الله (عزَّ وجل) لرحمته بعباده لم يكتف بمنحهم العقل القادر على أن يميز بين الخير والشر ، لكنه فضلاً عن ذلك أشرق عليهم برحمته التى تمثلت فى رسله يحملون هديه للناس . لقد أشرقت شمس الهداية المتمثلة فى دين الله على الناس منذ عاشوا فوق الأرض ، مُستَخلفين فيها ، ومع مرور السنين وتعاقب الأجيال كانت رسل الله عليهم السلام تترى إلى الناس يحملون إليهم هدى ربهم ، رافعين لواء التوحيد ، يرشدون العباد إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة .

ورغم كثرة الرسل إلى الناس وتعدد الرسالات إلا أن جميع الرسل هتفوا بنداء واحد ، هو نداء التوحيد وعبودية الله الواحد الديان ، الذى لا إله غيره ولا شريك له ، كما كانت مبادئهم واحدة تتمثل فى عقيدة واحدة ترسخ الإيمان بالله ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما كان كل رسول يدعو قومه إلى ما يصلح لهم دنياهم وأخراهم من خلال نهج التعامل فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين خالقهم .

وسلسلة النبوات تمثل نهجًا واحدًا متكاملاً لأن مصدرها واحد هو الله الخالق الرءوف بعباده ، وتنبع من مشكاة الهداية الربانية التى شملت الخلق بالرحمة فأرسلت الرسل التى توحدت دعوتهم فى الهداية ؛ لأن مصدرها واحد .

يقول تعـالى :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .. ﴾ (الشورى ــ ١٣)

ويقول تعـالى :

﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . (آل عمران ــ ٨٤)

ولقد اقتضت رحمة الله أيضًا أن يتعدد الرسل وتتنـزل الكتب لكن الجميع دينهم واحد هو دين الله الخالد ، فكل الرسالات مبعثها واحد وهدفها واحد هو إرشاد الخلق إلى سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة .

الدين يناسب التطور الإنسانى :

اقتضت حكمة الله (عزَّ وجل) أن يتعدد إرسال الرسل بالرسالات مراعاة لظروف البشر ومراحل نموهم ، فقد مرت الإنسانية عبر الزمان بنفس المراحل التى يمر بها الإنسان المفرد خلال عمره .

فالإدراك الحسى سابق على غيره من أنواع السمو ، ثم ينمو الوجدان ، ويكتمل نمو الإنسان بوصول العقل إلى مرحلة النضج والاكتمال ، وهذا شأن الإنسان المفرد ، وهو نفس الشـأن بالنسبة للجنس البشرى بصفة عامة ، وهذا يفسر لنا تعلق الناس فى العصور القديمة بعبادة الأصنام فهم يريدون إلهًا محسوسًا تدركه الحواس .

ولقد خاطب الله (عزَّ وجل) الإنسانية مراعيًا ظروف نموها ونضجها ، ولذلك تعددت هذه المخاطبة من خلال تعدد إرسال الرسل ، فكانت كل رسالة تأتى مناسبة للمرحلة التى تعيشـها الإنسانية من حيث النضج والاكتمال ، وتعتبر هذه الرسالة أو الدين مناسبة لهذه المرحلة لذلك كانت تعتبر ناسخة لما سبقها ، ومناسبة لفترة محدودة تنمو خلالها الإنسانية إلى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

حد يجعلها تنتظر دينًا آخر ، فيأتى هذا الدين ينسخ ما قبله ، ويكون هو الآخر مناسبًا لفترة جديدة من فترات نمو الإنسان ، فإذا انتهت جاء الدين الذى ينسخه ، وهكذا دواليك . إلى أن يأتى الدين الخاتم .

الدين يعالج واقع الأمم :

وثَمَّة ضرورة أخرى تعددت لأجلها الرسالات والرسل ، فالله (عزَّ وجل) كان يخاطب كل أمة حسب ظروفها وما تعيشه من أحداث ، وما تعانيه من مشكلات ، وما ساد فيها من انحراف عن الفطرة ، فكان الدين علاجًا لهذه المشكلات ، فهو خطاب خاص بهذه الأمة ، يعالج مشكلاتها ويخلصها مما تمارسه من أخطاء وخطايا للأخذ بها نحو الطريق المستقيم فى الوقت الذى يؤكد مبدأ ألوهية الله (عزَّ وجل) .

مثال ذلك أن قوم شعيب كانت أخطاؤهم تتمثل فى الجانب الاقتصادى ، فهم يطففون الكيل والميزان ويبخسون الناس أشياءهم وينهبون ممتلكات الغير ، فكانوا يقطعون الطرق على ما قد يكون مع المارة ، وذلك فضلاً عن انحراف العقيدة واتجاههم إلى عبادة الأصنام .

أما قوم لوط فإنهم كانوا مع انحراف عقيدتهم وانصرافهم عن عبادة الله كانت لهم مشكلتهم الأخلاقية التى تتمثل فى إتيان الذكران ولا يستقبحون ما يفعلون ، فكانوا لا يستترون فقد كانوا قومًا قد قست قلوبهم وفسدت أخلاقهم ، فكانوا يجاهرون بلا حياء فبعث الله إليهم لوطًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله ويخوفهم بأسه كما ينهاهم عن القبائح التى يرتكبونها .

وهكذا كانت رسالات السماء تسهم فى علاج المشكلات ومقاومة الفساد فى أقوام بذواتهم فى الوقت الذى تؤكد مبدأ الألوهية وعبادة الله فى إطار مراعاة ظروف النمو الذى تمر به الإنسانية .

الإسلام خاتم الأديان :

حين اكتمل نضج الإنسانية وبلغت مدارك الإنسان حدًّا يستطيع معه أن يتفهم الدين الخاتم كانت بعثة رسول الله ﷺ بهذا الدين الذى ينسخ ما سبقه من أديان ، ويستمر مع الإنسان إلى ما شاء الله . يقول الدكتور نظمى لوقا(*).

« ... فإذا تذكرنا أنَّ البشر يتطورون ويتقدمون فى وعيهم العمرانى ، كانت الإعادة المكررة تقصيرًا فلا يبقى إلا أن الشرائع السماوية تساير البشر فى تطورهم كما أن غذاء الإنسان يساير المرء فى تدرجه من الرضاع إلى الطفولة ، إلى الينعاع والكهولة ، وهذا يردنا إلى تمايز الرسالات الدينية وتفرد كل منها بخصوصية هى موضوع وجودها أو هى وظيفتها » .

لقد اكتمل نضج الإنسانية فأرسل الله الإسلام وهو الدين القيم الذى قال فيه (عزَّ وجل) :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا فطـرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وهو أيضًا الدين الكامل التام الشامل لكل ما يحقق صلاح الإنسانية . يقول فيه (عزَّ وجل) :

﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ ، وهو أيضًا الدين الذى ضمن الله حفظه من التغيير والتبديل والتحريف والأباطيل والأراجيف ، فيقول (عزَّ وجل) :

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ، وهو أيضًا الدين الخالد الباقى المستمر إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، فيقول تعالى :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

(*) محمد الرسالة والرسول ، الدكتور : نظمى لوقا .

Looloo
www.dvd4arab.com

هذا الدين الذى ارتضاه الله للناس ولم يرتض غيره : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، ﴿ ومَنْ يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ قد أنزله الله فى الوقت الذى شاء .

ولقد شاء سبحانه أن ينـــزل فى الوقت الذى اكتملت فيه مدارك البشر وصاروا قادرين على أن يتفهموه ، وصاروا أيضًا قادرين على أن يعملوا به ويلتزموا منهجه ، وأيضًا فى الوقت الذى صار ضرورة لإصلاح حال الإنسانية التى هوت إلى منحدر باطل فى العقيدة وفساد السلوك .

لقد نزل الإسلام الذى هو المرحلة النهائية فى سلسلة الدين الإلهى للإنسان ، وقد نبه سبحانه الإنسانية إلى ذلك فقال سبحانه : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾ .

ووجه رسول الله ﷺ حديثه للناس فى حجة الوداع التى نزل فيها قول الله السابق مؤكدًا هذه الحقيقة ، فقال :

« أيها الناس .. اسمعوا قولى فإنى قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا .. كتاب الله وسنة نبيِّه » .

النبى الخاتم :

وكما أعد الله تعالى للناس ما يصلحهم من خلال دينه الخاتم ، فإنه قد أعد سبحانه لهذا الدين القويم رسوله العظيم القادر على تلقيه والقادر على نشره بين الناس وتحمل تبعاته ، فالمهمات العظيمة الشاقة يُعدُّ لها الرجل العظيم ، ويختار لها الكفء الكريم ، فإذا كان الإسلام هو الدين التام الكامل الخالد الذى حفظه الله وارتضاه للبشر حتى آخر الزمان ، فلابد أن يكون رسوله أيضًا هو الأكرم والأكفـــأ والأعظم بين الرسل ، تصديقًا لقول الله

(عزَّ وجل) : ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلاَّ وسعها ﴾ ، فلن يكلفه الله بهـــذه الرسالة وهو فى مستوى دونها من الكفاءة والقدرة ، لذلك نستطيع أن نقول أن الله (عزَّ وجل) قد أعدَّه وهيأه ليكون فى عظمة المهمة العظيمة التى وكلت إليه .

ولقد قدَّر الله (عزَّ وجل) فى علمه الأزلى أنَّ الإسلام هو خاتم الأديان وأنَّ رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء ؛ ولذلك كان اختياره وإعداده منذ البداية .

روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة ﷺ أنهم قالوا :

يا رسول الله .. متى وجهت لك النبوة ؟ قال عليه السلام :

(وآدم بين الروح والجسد) .

فرسول الله ﷺ هو الرسول الذى اختاره الله ليحمل لواء الدعوة إلى الدين الخاتم منذ الأزل ، وتولى رعايته وصونه فى أصلاب الرجال من لدن آدم عليه السلام إلى أبيه عبد الله بن عبد المطلب ، نورًا ينتقل من جيل إلى جيل ، ثم تولى سبحانه رعايته منذ طفولته وإلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، حيث كلفه ربه أمانة الدين الخاتم الذى أكمل سلسلة الأديان المتعاقبة على مر الزمان والتى تعبر فى الحقيقة عن دين واحد هو دين الإسلام .

Looloo
www.dvd4arab.com

١٧

النبى العاقب

العاقب والخاتم :

ختمت رسالة الإسلام رسالات السماء فكان الإسلام هو الدين الخاتم كما أنَّ رسوله هو النبى الخاتم ، وهذا يعنى أنه آخر المرسلين وخاتمهم وأن الإسلام هو أيضًا آخر الأديان .

وإذا كان رسول الله ﷺ هو الخاتم فإنه أيضًا هو العاقب ، ذلك أن كل صفة من الصفتين تعنى مفهومًا ومعنى محددًا .

فرسول الله حين جاء كان آخر المرسلين ، وكل نبى جاء قبله كان يعتبر آخر المرسلين حين كلفه ربّه وكان خاتمهم ، ولكنه لم يكن يطلق عليه العاقب لأن سلسلة الرسالات لم تكن قد اكتملت ، فيظل آخر المرسلين إلى أن يبعث نبى آخر ، فيصبح هذا النبى الجديد هو بدوره خاتم المرسلين حتى يبعث غيره ، وهكذا .

والأمر يختلف بالنسبة لرسول الله ﷺ ، فهو آخر المرسلين ؛ لأنه أكمل سلسلة النبوات ، فكان آخر المرسلين فى زمانه وإلى الأبد ، لأنه لن يبعث بعده نبى لأنه عليه السلام الحلقة الأخيرة فى سلسلة الرسل ، وهو اللبنة التى أكملت البناء . يقول عليه السلام :

« إنَّ مثلى ومثـــل الأنبياء قبلى كرجل بنى بيتًا ، فأحسنه وأجمله إلاَّ موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

فكل رسول جاء فى سلسلة الأديان كان يعتبر حين مجيئه النبى الأخير أو الخاتم إلى أن يجىء غيره ، أمَّا رسول الله محمد بن عبد الله فهو الخاتم وإلى الأبد ، ولذلك حق له أن يسمى أيضًا العاقب ، يقول عليه السلام :

Looloo
www.dvd4arab.com

« لى خمسة أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى لا نبى بعدى » .

الإسلام آخر الرسالات :

كان لابد وأن يكون رسولنا آخر الأنبياء ؛ لأن رسالته آخر الرسالات ، وقد صارت كذلك لأنها استوعبت كل الأصول التى جاءت فى سائر الرسالات السابقة ، بعد أن نزهتها عن الانحرافات التى انحرف بها أصحابها ، فصارت رسالة الإسلام هى جوهر الدين النقى ، دين الله الأزلى منذ أشرقت أنوار الهداية ، والأبدى إلى آخر الزمان ، ذلك أن الإسلام أوضح المبادئ الأساسية فى علاقة البشر بالله وبالكون بعد أن صار الإنسان فى مستوى إدراك يستطيع معه أن يتلقى مبادئ الدين الخالد . وبذلك لم تعد هناك حاجة إلى شرع جديد ، وأيضًا لم تعد هناك حاجة إلى كتاب جديد بعد القرآن الكريم كتاب الإسلام الذى شاء الله أن يكون مسك الختام ، وبذلك أغلقت أبواب السماء ، فلا يتنزل ملك بوحى ولا يكلف نبى برسالة وأعلن الله (عزَّ وجل) أن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه للإنسانية إلى آخر الزمان : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، وصارت دعوة رسول الإسلام هى نداء الله إلى البشر فى كل زمان وفى كل مكان ، فإذا كان عليه السلام عربيًّا بحكم مولده ولغته فهو ليس وقفًا على العرب ؛ إذ إن تعاليمه وتشاريعه وميراثه ملك للإنسانية جمعاء .

وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول :

« أنا العاقب الذى لا نبى بعدى »

ولقد بيَّن الله للناس فى الكتاب هذه الحقيقة ، وأكد (عزَّ وجل) أنه الدين الناسخ لكل الأديان ، يقول سبحانه :

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا ﴾ . (الفتح ــ ٢٨)

ويقول تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ . (التوبة ٣٣ ، الصف ٩)

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ . (التوبة ــ ٣٢)

ويقول (عزَّ وجل) : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ . (الصف ــ ٨)

يقول الأستاذ توفيق محمد سبع موضحًا هذه الحقيقة :

كأن رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه كانت فى ضمير الكون تنتقل من جيل إلى جيل على ألسنة الرسل الكرام حتى تصب فى شريعة الإسلام كما تصب الروافد فى المحيط الكبير ، وكأنما محمد فى شخصه النبيل قد تجمعت فيه فضائل الرسل مجتمعين[١] .

ولقد أدرك هذه الحقيقة القس الفرنسى لوزان فيقول[٢] :

« .. الديانة المحمدية مع كونها من بعض الوجوه خاصة بالعرب وبعصر ظهورها ، فإنها الديانة العامة الخالدة للنوع الإنسانى » ، ومن المنصفين الذين أكدوا هذه الحقيقة أكبر مؤرخى الإنجليز المستر ويلز الذى يقول[٣] :

« .. إن الديانة الحقة التى وجدتها تسير مع المدنية كيفما سارت واتجهت هى الدين الإسلامى ، ومَنْ أراد أن يحقق ذلك فليتصفح القرآن .. أكثر نظمه وقوانينه نستعملها الآن فى وقتنا الحاضر وسيستعملها غيرنا ممن بعدنا حتى فناء الدنيا » .

ويؤكدها أيضًا القس الشهير لوزان[٤] فيقول :

(٢،١) قيم حضارية فى القرآن الكريم ، توفيق سبع .
(٤،٣) من كتاب الإسلام والحضارة العالمية ، للأستاذ محمود أبو الفيض المنوفى .

Looloo
www.dvd4arab.com

« ليس فى الاكتشافات العلمية الحديثة ولا فى المسائل التى انتهى حلها أو التى تحت الحل والاختبار ما يغاير الحقائق التى جاءت فى الشريعة الإسلامية » .

الرسول يؤكد الحقيقة :

وقد أكد رسول الله ﷺ هذه الحقيقة وهى أنه النبى العاقب ، وأنه لا نبى بعده عليه السلام ، وقد وردت عنه جملة من الأحاديث الصحيحة فى هذا المجال[١] .

يقول عليه السلام :

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى وسيكون خلفاء[٢] » .

وقال عليه السلام : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[٣] » .

ويقول عليه السلام :

« إنّ الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى »[٤] .

وعن جبير بن مطعم أن النبى ﷺ قال : (أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على عقبى ، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى)[٥] .

(١) النبى الخاتم (أبو الحسن الندوى) .
(٢) الجامع الصحيح للبخارى (كتاب المناقب) .
(٣) صحيح البخارى ، كتاب المناقب .
(٤) رواه الترمذى ، كتاب الرؤيا ، باب : ذهاب النبوة .
(٥) رواه البخارى .

دين صالح لكل زمان ومكان :

وما دام الإسلام قد صار دين الإنسانية إلى آخر الزمان ، ورسوله هو الرسول العاقب الذى لا نبى بعده ، فقد امتدت رحمة الله لتجعل من هذا الدين الصالح والمناسب للإنسانية فى كل أوطانها وفى كل أزمانها وفى كل أحوالها ، ما دام لن يأتى بعده دين يعدله أو يكمله أو يغيره أو ينسخه ، كما لابد وأن يكون مشمولاً برعاية الله فيحفظه من التحريف والتبديل حتى تبقى أنوار الله فوق الأرض يسترشد بها الإنسان ، فلا يحدث للإسلام ما حدث لغيره من تشويه أو تحريف ، فيضمن الله (عزّ وجل) بقاءه وحفظه ، كما تحقق للإسلام الكمال والصلاحية على النحو التالى :

١ ــ اتفاق تعاليم الإسلام مع فطرة الإنسان وغرائزه ، فهو دين الفطرة الذى يحقق للإنسان إشباع حاجاته فى إطار من السمو الوجدانى والرقى الأخلاقى والتعاون الإنسانى ، يقول تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التى فطر الناس عليها ... ﴾ (الروم ــ ٣٠)

٢ ــ يتضمن التوحيد المشمول بالتنزيه ، فالله الواحد الأحد الذى لا يشبهه شىء ولا يماثله شىء أو يشاركه فى تدبيره مشارك ، يقول تعالى :

﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ . (الشورى ــ ١١)

ويقول تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ .

٣ ــ يحقق العبادة الصحيحة الخالية من التوجه لغير الله (عزّ وجل) ، فيتوجه إليه الفرد فى دعائه ، ويبتهل إليه فى عبادته .

Looloo
www.dvd4arab.com

٤ ــ انسجامه مع العقل واتفاقه مع حقائق العلم ، فلم يحدث أن تعارض مع حقيقة كونية أو اكتشاف علمى .

٥ ــ إقامة التوازن التام فى كافة جوانب الحياة :

(أ) فهو يحقق التوازن بين الجوانب المادية والجوانب الروحية للفرد ، فيشبع حاجات الجسد وتطلعات النفس بقدر ما يعمل على السمو بها إلى آفاق الروح الرحبة وعالم الفضيلة السامى .

(ب) يراعى الفروق الفردية بين البشر فى كافة الجوانب ، فهو يحقق لأصحاب القلوب السامية والفكر المثالى طموحاتهم فى العبادة ، كما يحقق لصاحب الدنيا حاجته ، فلا يحقر الدنيا فى ناظريه ، وإنما يتيح له إشباع حاجته فى ظلال من طاعة الله والسعى لكسب مرضاته .

(جـ) يحقق الانسجام بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع فى إطار من التعاون والمحبة .

(د) يحقق الانسجام بين الدنيا والآخرة ، فهما وجهان لعملة واحدة والهدف عمران الكون وإشباع الحاجات فى إطار من تعاليم السماء .

٦ ــ جاء بأصول وقواعد وأحكام عامة تشمل جميع جوانب الحياة من عقائد وآداب ومعاملات وعقوبات ونظم للحكم وللدولة وللأسرة ، وإقامة علاقات طيبة بين العالم كله .

٧ ــ تميز بالبساطة فى أحكامه وتعاليمه ، وبعده عن الغموض والتعقيدات ، وهذا يجعل الإنسان كل إنسان قريبًا من ربه ، إذ لا واسطة فى الإسلام بين الخالق والمخلوق .

٨ ــ تتميز شريعة الإسلام بالمرونة ، حيث تتضمن قواعد عامة تنظم حياة المجتمع فى الأمور التى لا تتأثر بتغيرات انظروف ، أما الأمور التى تخضع لتطور الحياة ولظروف المواقف المتجددة ، فإنه لم يرد بشأنها نصوص قاطعة لتكون موضع اجتهاد للناس فى كل عصر ؛ كى يتخذوا من الإجراءات من يكفل بتحقيق مصالحهم فى إطار مبادئ الدين ، وبذلك فلا يوجد بها نص لا يتفق مع متغيرات الحياة ويكون عائقًا يحول بين الناس وبين الأخذ بما يتوصل إليه تطور الفكر والحياة ، فالإسلام يأخذ بمبدأ المصالح المرسلة ؛ لذلك فهو يتعالى على حدود الزمان ؛ لأن صلاحيته لا تنتهى عند عصر بعينه .

معجزة مستمرة :

ولما كان رسولنا هو العاقب الذى لا نبى بعده ، كان لابد وأن تكون معجزته مستمرة خالدة خلود رسالته ، حتى تظل حجيتها قائمة إلى ما شاء الله ، ومن هنا كان القرآن الكريم هو معجزته .

لقد كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية تخاطب الإدراك الحسى ، خلافًا لمعجزة الإسلام التى تخاطب الإدراك العقلى ، فيستمر أثرها ولا يتوقف بينما تكون حجية المعجزة الحسية لدى من شاهدها وعاصرها . فهى أمور خارقة وغير طبيعية تلزم المشاهد لها بصدق الرسول والرسالة ، مثال ذلك ناقة صالح أو عصا موسى أو إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله بالنسبة لعيسى عليه السلام ، فهى مقنعة لمن عاصرها وشاهدها لكنها ربما يتشكك المتشكك ويرتاب المرتاب مع تعاقب السنين بالنسبة لمن لم يعاصرها ، أما القرآن الكريم كمعجزة للدين الذى واكب اكتمال نضج العقل الإنسانى فهو يخاطب من عاصر الدعوة أو من جاء بعد ذلك مع تعاقب القرون ، فيقنع عقول الجميع المعاصرين للرسول والذين جاءوا بعده .

www.dvd4arab.com

يقول الشيخ محمد عبده(*) :

« فالإسلام فى هذه الدعوة لا يَعْتمد على شىء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجـرى على نظامه الفطرى ، فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتـادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ولا يقطع فكرك بصيحة إلهية » .

أمة تتحمل عبء الدعوة :

ولما كان رسولنا هو العاقب الذى لن يأتى بعده نبى برسالة فقد اقتضت حكمة الله (عزَّ وجل) أن تقوم على عبء الدعوة إليه أمة تتحمل مسئوليته وتدعو إليه ، وتبلغه إلى سائر الناس ، وتحميه من التحريف ، وتكون لها الريادة على الإنسانية كلها فى كل زمان ومكان ، وذلك مصداقًا لقول الله (عزَّ وجل) : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (آل عمران ــ ١١)

ولذلك فقد تمكن رسول الله بفضل إعداد الله له ومعاونته إياه من إعداد الأمة وتربية أفرادها بأعداد تستطيع أن تتحمل أمانة الدعوة ، وبحالة من الإيمان تجعل أفرادها يؤمنون أن لهم دورًا فى الحياة من أجل أن يكونوا شهداء على الناس ، وذلك لا يتحقق إلاَّ بنشر دينه وإيصاله لسائر الشعوب ، فيكونون أئمة للهدى وحملة للرسالة ، وينابيع للخير فى كل مكان وزمان ، يقول ﷺ :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله » ، وهذا ما تحقق بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم بعد ذلك فى سائر العصور ؛ ولذلك خاطب الرسول أمته فى خطبة الوداع فى يوم عرفة ستة عشرة للهجرة حيث توفى بعد ذلك بإحدى وثمانين ليلة ، فكان من كلامه فى هذه الخطبة الجامعة : « .. أيها الناس إنه لا نبى بعدى ، ولا أمة بعدكم »

فهذا إيذان منه عليه السلام أنهم حملة الدعوة إلى الله وأنهم شهداء على الناس .

(*) كتاب (الإسلام والنصرانية) .

حقيقة تأكدت :

ولقد صدق رسول الله ﷺ ، فالمتتبع لسلسلة النبوة عبر الزمان منذ آدم عليه السلام يجد أنَّ الله (عزَّ وجل) كان يبعث رسله إلى الناس يحملون هديه إليهم على فترات متفاوتة ، ولذلك نجد أن عدد الأنبياء جمًّا غفيرًا ، كما ذكر رسول الله ﷺ ردًّا على سؤال الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى حين سأل :

يا رسول الله .. كم عدد الأنبياء ؟ فقال عليه السلام : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا » ، ثم سأله أبو ذر :

كم عدد الرسل ؟ فقال عليه السلام :

« ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير » (أى عدد كثير) هذا العدد الهائل من الأنبياء والرسل قبل بعثته عليه السلام ، فما كان يمضى وقت حتى يُبعث نبى ، حتى إنه كان فى بعض الأوقات يبعث أكثر من نبى فى فترة واحدة ، كما كان الحال فى زمن يحيى عليه السلام ؛ إذ بعث معه ابن خالته عيسى فى زمن متقارب .

ولقد بعث محمد عليه السلام وأعلن أنه النبى العاقب ، وقد صدق حيث تحقق ما نطق به ، إذ إنه منذ بعثه لم يظهر نبى على طول المدة اللهم إلاَّ بعض المتنبئين الذين سخر الناس منهم وابتلعهم النسيان ، واللهم إلا بعض العملاء الذين أغراهم أعداء الإسلام بادعاء النبوة من أجل ضرب المسلمين من داخلهم وزرع بذور الفتن والكيد للإسلام ، وخلق النـزاعات والصراعات التى تسترت بشعارات دينية مثلما حدث بالنسبة للقاديانية والبهائية ، ولم يلتفت إلى أولئك المتنبئين إلاَّ القليل من السذج والكثير من أعداء الإسلام الذين يريدون هدم البنيان من الداخل وبقيت الحقيقة التى تأكدت وتطابقت مع الواقع ، وهى أن رسول الله هو النبى العاقب الذى لا نبى بعده ﷺ .

Looloo
www.dvd4arab.com

١٨

النبى المحبوب

صلى الله عليه وسلم

جدير بالحب :

تمتع رسول الله ﷺ بقدر هائل من الحب فى قلوب أصحابه وكل من تعامل معه ، فقد أحاطه المؤمنون به بحب وإعزاز لم يحظ أحد بمثله فى تاريخ البشر ، وهو حب قائم على التقدير والإعجاب والمعاشرة ، ولقد عاشره أصحابه فأسرهم خلقه ونبله وذوقه الرفيع وحدبه عليهم وعلى الخلق جميعًا ، وجذبهم إليه ما لمسوه فيه من قلب كبير امتلأ حبًا لهم وعطفًا عليهم وإشفاقًا بهم وبالناس جميعًا ، فكان يلتمس كل السبل ليأخذ بأيديهم إلى طريق الهداية وينتشلهم من طريق الغواية ، فكان عليه السلام محلاً للحب وأهلاً للتقدير والإعجاب فأحبوه أكثر مما أحبوا أنفسهم وأهليهم .

لقد لمسوا فيه زهده فى كل شىء إلاّ فى هداية الناس ، فكان يؤثرهم برعايته وعطفه وجهده يعلمهم ويرشدهم ويخدمهم ويسمو بنفوسهم إلى آفاق من السمو والكمال ، ولا يتطلع إلى أن يشبع حاجات بشريته الضرورية من مأكل وملبس ومسكن بقدر ما يتطلع إلى السمو بقومه وبالناس جميعًا إلى آفاق من الرفعة والكمال .

لقد رفعه الله إلى قدر لم يتح لبشر ، ولكنه عليه السلام كان حريصًا على أن يتواضع إلى حد لم يتخيله أحد ، يجلس حيث ينتهى به المجلس كواحد من الناس يخدم مَنْ معه ويرفض أن يخدمه أحد ، يأكل هو وآل بيته أقل مما يأكل الناس ، يرفض أن يطريه أصحابه ويقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ، ويقول عن نفسه : « أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

www.dvd4arab.com

عرض عليه قومه كل طيبات الدنيا من الملك والسيادة والزعامة والمال لكنه رفض هذا جميعه وآثر أن يكون عبدًا لله ورسوله يجاهد من أجل هداية الناس ويقاسى شظف الحياة وخشونة العيش ، ويقول : (اللهم أحينى فقيرًا وأمتنى فقيرًا واحشرنى فى زمرة الفقراء والمساكين) .

عايشه الناس فوجدوه نبع خير ومصدر بركة ومشعل هداية فأحبوه إلى حد لم يتكرر لأحد غيره فى التاريخ .

حبه عبادة :

لقد استحوذ رسول الله ﷺ على قلوب معاصريه ومعاشريه بسبب انبهارهم بشخصه العظيم ، ولما لمسوه فيه من فضل ، حيث وجدوا فيه الإنسان المثال المتصف بكل كمال ، وقد استحق الحب لذاته ، وثمة ضرورة أخرى أوجبت حبه ، فقد أظهرت آيات القرآن الكريم فضله ، ثم أوجبت جنته ، فقرن الله (عزَّ وجل) حبه بحب رسوله الكريم ﷺ حيث يقول سبحانه : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ .

والمعروف أنهم لن يحسنوا اتباعه إلاَّ إذا أحبوه ، إذ إن الاقتداء والتأسى لا يتم بالصورة المرجوة ، ولن يكون له أثره الحميد والخالد فى القلوب إلاَّ إذا كان للشخص فى نفس المتبع الحب والتوقير والتقدير .

ولقد أكد رسول الله ﷺ هذا المعنى من وحى الله له ، فقال عليه السلام : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين(*) » .

(*) أخرجه البخارى .

لذلك أحبه الصحابة التزامًا بتوجيه الله (عزَّ وجل) فصار حبه عبادة واجبًا دينيًّا ، كما كان حبه لذاته بسبب معاشرتهم له والتعرف على معدنه النادر ، فأدركوا أنه محل للتقدير مستحق للإجلال ، وأنه شخص مؤثر بقوله وعمله بجماله وجلاله ، بتخطيطه وتطبيقه ، فكان إكبارهم له وحبهم الفائق لشخصه العظيم .

حب بلا حدود :

يتبادل الناس الحب فى كل الأزمان وتنشأ بين الأفراد علاقات قوية من الصداقة والحب ، وتنشأ بين الشعوب وقياداتها علاقات قوية قائمة على الإعجاب والتقدير والعرفان ، ولكن حب الصحابة الذين عاشروا رسول الله ﷺ كان حبًّا من نوع فريد نادر لا يتكرر ، إذ يندر أن يحب إنسان غيره أكثر مما يحب نفسه ، والأكثر ندرة أن يجمع الجميع على حب شخص أكثر مما يحبون أنفسهم جميعًا ، لكن هذا قد تحقق لرسول الله ﷺ .

يقول أبو سفيان قائد المعسكر المعادى للإسلام والعدو اللدود لرسول الله ﷺ قبل إسلامه :

(ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد لمحمد) .

ويقول عروة بن مسعود قبل إسلامه ، وكان قد لقى رسول الله ﷺ فى الحديبية وعاد يحدث قومه فيقول :

أى قوم .. والله لقد وفدت على الملوك على قيصر وكسرى والنجاشى(*) ، والله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمدًا ..

(*) أكابر الملوك فى ذلك الزمان .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثم استمر قائلاً :

فوالله ما تنخم نخامة إلاّ وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، ما يحدون إليه النظر تعظيمًا له .

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى معلقًا : إنها لصورة حيَّة أوضحها عروة بن مسعود لمدى محبة أصحاب رسول الله ﷺ له ، وإنَّما لتدل على أنه لا إيمان برسول الله بدون محبـــة له ، وليست المحبة له عليه السلام معنى عقلانيًّا مجردًا ، وإنما هى الأثر الذى يستحوذ على القلب ، فيطبع طابعه بمثل الطابع الذى وصف به عروة بن مسعود أصحاب رسول الله ﷺ(*) .

حب خالد يتجدد :

لقد امتلأت قلوب أصحاب رسول الله ﷺ بحبه وتقديره وإكباره حين عاشروه ، ثم امتلأت قلوب الأجيال المتعاقبة أيضًا بحب الرسول وإعزازه رغم أنهم لم يشاهدوه ولم يخالطوه ، إنهم قد عايشوه من خلال سيرته ، ومن خلال ما أثر عنه ، وذلك أن الصحابة قد اهتموا بسنته ﷺ كل الاهتمام ونقلوا إلى جيل التابعين وإلى تابعى التابعين صورة حية ناطقة بحياته وأخلاقه وأعماله كأنها صورة حيَّة مشاهدة ومحسوسة ، فكان كل جيل يتعلق به ، ويتدارس حياته ويحفظ أقواله ، ويتأسى بسنته ، ويتعرف على فضله وقدره عند ربه فتزداد القلوب حبًّا له والنفوس تعلقًا به .

ومما يضاعف هذا الحب الاعتقاد الجازم عند أجيال المسلمين أنه عليه السلام قد أدى دوره كاملاً من أجل استنقاذ الناس من ضلال العقائد ، والأخذ بأيديهم نحو عبـــادة الله ، فحين يعلن المسلم الشهادة بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا

(*) (فقه السيرة) محمد سعيد رمضان البوطى .

رسول الله فهـــو يقر بقلبه ويشهد بلسانه ويفكر بعقله ، أنه مدين بالفضل لهذا الرجل العظيم الذى عبَّد طريق الإيمان حين أعلنها مدوية وهو يحطم الأصنام بعد أن جاهد فى الله حق جهاده ، فقال يوم فتح مكة : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا » .

فهو عليه السلام صاحب الفضل ، ولولاه ما اهتدينا وما صلينا ، وما عبدنا الله حق عبادته ، وما اجتنبنا الأصنام بعد أن رأينا الحق حقًّا فالتزمناه ، فيعتقد المسلمون على مر الزمان أنه صاحب الفضل ، الجدير بكل الحب والإجلال والتقدير ، ولهذا يسرى حبه فى القلوب ويتنقل عبر الأجيال .

ولقد توقع عليه السلام أنَّ حبه سيستمر فى قلوب المؤمنين ، فصوَّر ذلك بقوله الكريم :

« والذى نفسى بيده ليأتين على أحدكم ولا يرانى ، ثم لأن يرانى أحب إليه من أهله وماله معهم » .

لقد أحبه المؤمنون وهو معهم ، وانتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى لكن حبه تتوارثه الأجيال ويتضاعف فى القلوب .

يحبـون آثـاره :

كان حب الصحابة لرسول الله ﷺ قويًا وعميقًا إلى الدرجة التى جعلتهم يحبون كل ما حوله ويتعلقون به ، لذلك كانوا بعد أن فارقهم يتتبعون آثاره فى كل مكان تواجد معهم عنده أو صلى فيه ، ويولون هذا المكان رعاية وحبًّا وتقديرًا ، فكانوا يترددون عليه ويسترجعون ذكرياتهم معه .

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه عليه السلام كان قد نزل تحت شجرة ، فكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يتعهد هذه الشجرة بالماء ويدمن التردد عليها ويسقيها بالماء لكيلا تيبس .

Loolod

ويلتزم عمر بن الخطاب ﷺ بنهج رسول الله فى تقبيل الحجر الأسود ، فيقول :

أما والله إنى أعلم أنّك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ استلمك ما استلمتك .

وحين سعى بين الصفا والمروة ووصل إلى المكان الذى يتحول فيه المشى إلى رمل(*) وكان رسول الله قد أهلّ ، وأمر به أصحابه عنـــد أداء عمرة القضاء فى السنة السابقة للهجرة إظهارًا لقوة المسلمين ، ودفعًا لما ردده المشركون من أن المسلمين قد أهكتهم وأضعفتهم حمى يثـــرب ، والتزم المسلمون نهج رسول الله فى الطواف حتى الآن وحين سعى عمر قال :

ما لنا والرمل .. إنا كنا راءينا المشركين ولقد أهلكهم الله ، ثم قال :

شىء صنعه رسول الله ﷺ فلا يجب أن نتركه .

هكذا كان حب الصحابة لرسول الله يدفعهم إلى التمسك والالتزام بكل آثاره سواء أفعالاً أو أقوالاً أو آثارًا .

ولقد سبقت الإشارة إلى أن الصحابة كانوا يسارعون إلى وضوئه يتبركون به ، أو بأى شىء لمسه رسول الله ﷺ ، فيروى الإمام أحمد وغيره عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ دخل على أم سليم وكان فى البيت قربة معلقة فشرب رسول الله من فيها (فمها) فقطعت أم سليم فم القربة واحتفظت به للتبرك كأثر من آثاره .

(*) الرمل هو السير الوسط بين المشى والجرى .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم حريصين على أداء الصلاة فى المكان الذى يعرفون أن رسول الله قد صلى فيه من قبل ، وما زال الناس يتزاحمون على أداء الصلاة فى الروضة الشريفة[1] فى مسجد الرسول بالمدينة .

وقد دفع حب الرسول وتوقيره الإمام مالك بن أنس أن يمتنع عن ركوب دابة داخل شوارع المدينة احترامًا لقدره العظيم .

ولقد كان جيل التابعين يتبركون بكل من اقتـــرب من رسول الله ﷺ ويقبلون اليد التى سبق أن مسَّها رسول الله ، فيروى أن يزيد بن الأسود قد أمسك يد واثلة بن الأسقع ومسح بها وجهه وصدره حين عرف أنه ممّن بايعوا رسول الله ﷺ[2] ، كما قام عبد الرحمن بن رزين وصحبه بتقبيل يد سلمة بن الأكوع حين سلم عليهم ؛ لأنه كان هو الآخر ممن بايعوا رسول الله[3] .

وعن ثابت قال :

كنت إذا أتيت أنسًا آخذ يديه وأقبلهما ، وأقول : بأبى هاتين اليدين اللتين مستا رسول الله ﷺ ، وأقبل عينيه ، وأقول : بأبى هاتين العينين اللتين رأتا رسول الله[4] .

وكذلك كان الصحابة يتبركون بمنبر رسول الله ﷺ وبحجته وقبره وبكل ما مسته قدمه أو يده ، حتى إن أحد الصحابة وهو أبو مجزأة كانت له قصة شعر فى مقدم رأسه طالت حتى بلغت الأرض ، فقالوا له : ألا تحلقها ؟ فقال :

إن رسول الله ﷺ قد مسح عليها بيده فلم أكن لأحلقها حتى أموت .

(١) ما بين المنبر وقبر الرسول ﷺ .
(٢) الحلية لأبى نعيم جـ ٩
(٣) البخارى ـ الأدب المفرد .
(٤) كتاب مفاهيم يجب أن تصحح ، محمد علوى المالكى .

Looloo
www.dvd4arab.com

هكذا أحب الصحابة ومَنْ بعدهم رسول الله ﷺ حبًا عميقًا امتد ليشمل كل ما يحيط به ، وفاءً له وتقديرًا لشخصه المحبوب ، وإن التفاف قلوب المسلمين حول آل بيته فى كل مكان من العالم الإسلامى هو مظهر من مظاهر ذلك الحب الجارف لرسول الله .

وإن دراسة سيرته وحفظ سننه على النحو الذى تحقق هو الآخر تعبير عن الحب الكبير الذى يكنه المسلمون لصاحب السنة الشريفة عليه الصلاة والسلام .

الجماد يحبه :

ومما أُكْرِمَ به رسول الله ﷺ من قبل ربه ، ومما خصه به سبحانه وتعالى دون سائر خلقه أن جعل الجمادات تشعر به وتسعد بقربه منها ، فترحب به وتحييه ، لقد كان يخرج عليه السلام إلى الشعاب وبطون الأودية كى يقضى حاجته فى الخلاء مبتعدًا عن البناء ومَنْ فيه فكان لا يمر بحجر ولا شجر إلاّ ويسمع أنه يقول : الصلاة والسلام عليك يا رسول الله .

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنى لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، وإنى لأعرفه الآن »(١) .

وروى الإمام الترمذى فى سننه عن على بن أبى طالب ﷺ أنه قال :

« كنت مع النبى ﷺ بمكة فخرجنا فى بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ولا شجر إلاّ وهو يقول : (السلام عليك يا رسول الله »(٢) .

(١) رواه الإمام مسلم عن جابر بن سمرة .

(٢) نبذة من السيرة النبوية ، العلامة أبو النصر الطرزى .

وكان رسول الله ﷺ يخطب من فوق جذع نخلة فى مسجده بالمدينة عند أول إنشائه ، فلما اتخذ المنبر تحول عنه ، فحن الجذع إليه فأتاه فمسح عليه .

وفى يوم وفاة الرسول ﷺ كان ممَّا قاله عمر بن الخطاب ﷺ وهو يبكى : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبرًا لتسمعهم ، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتها » .

وحزنت ناقته حين مات ورأت أنه خير لها أن تموت .

عن عمرو بن الحارث قال :

ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهمًا ولا دينارًا ولا عبدًا ولا أمة ولا شيئًا إلاّ سلاحه وأرضًا كان قد جعلها صدقة لابن السبيل وناقته العضباء التى كان يركبها والتى حزنت عليه فلم تأكل ولم تشرب حتى ماتت .

ومما يروى فى هذا الصدد ما حدث عند ذهابه إلى الشام مع عمه أبى طالب فى صباه وحين رآه الراهب بحيرا عند قرية بصرى أدرك أنه سيكون نبى الأمة ، وذلك عندما رأى أن الشجرة تميل بظلها عليه كى تخصه بظلها لتحميه من حر الشمس ، وخشى عليه من غدر اليهود وطالب عمه أن يرجعه إلى مكة .

وهكذا نرى أنَّ حب الرسول ﷺ لم يقتصر على البشر وإنما كان عامًّا بين سائر الخلق .

Looloo www.dvd4arab.com

نماذج من الحب

المعروف أن رسول الله ﷺ على قصر مدته وعلى كثرة الصعوبات التى واجهها من أجل نشر دين الله اتبعه جمع من الناس لم يسبق أن اتبع نبيًّا من قبله ، وقد أكد هذه الحقيقة عمر بن الخطاب ﷺ يوم وفاة الرسول ، فيقول :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ..

لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحًا فى كثرة سنه وطول عمره ، لقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل » .

ولقد آمن بعيسى عليه السلام عدد قليل أشهرهم الحواريون ، وكان عددهم يتجاوز عدد أصابع اليدين بقليل ، ورغم أن القديس بطرس كان من أعظمهم وأشهرهم ، فإنه حين لقى الرومان الذين كانوا يحاربون دعوة المسيح وسألوه :

أتعرف عيسى ابن مريم ؟ قال : لا ، وأكد عدة مرات أن ليس له صلة به ، لقد آثر النجاة بنفسه(*) .

وإذا انتقلنا إلى تابعى محمد عليه السلام ومحبيه نجد أنهم من حيث العدد كانوا أعدادًا هائلة يكفى أن نعلم أن مَنْ حج معه كان يقترب عددهم من المائة ألف مسلم ، ومن حيث النوع كانوا يحيطونه بحب جارف نابع من إيمان قوى بأن حبَّه عليه السلام من حب الله (عزَّ وجل) ، ولذلك كان مَنْ حوله يرتقون فى عيون مشاهديهم إلى عنان السماء .

(*) كتاب (علل وأدوية) الشيخ محمد الغزالى ص ١٢٢ ، طبعة دار الكتب الإسلامية .

يقول الشيخ محمد الغزالى :

« يقول مالك بن أنس : بلغنى أنَّ النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة ﷺ الذين فتحوا الشام يقولون : والله هؤلاء خير من الحواريين »(*) .

وهذه نماذج لبعض مواقف الحب الذى كان يكنه الصحابة لرسول الله ، تمثل الشعور الذى كان سائدًا عند الجميع .

١ ــ **ثمامة بن أثال** : يقول ثمامة بعد أن آمن برسول الله : والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها ، وما كان على وجه الأرض دين أبغض من دينك فقد أصبح دينك أحب الأديان إلىَّ .

٢ ــ **بلال بن رباح** : حين أدرك أنَّ أجله قد دنا ، وأنه سوف يفارق الدنيا حزن أهله وأصدقاؤه ، لكنه كان الوحيد الذى امتلأ قلبه فرحة وكان يقول :

غدًا ألقى الأحبة ، ألقى محمدًا وصحبه ، لقد صار الموت لديه أحب من الحياة ؛ لأنه سيسمح له بلقاء الحبيب .

٣ ــ **أبو بكر الصديق** : عرَّض أبو بكر حياته مرات عديدة للخطر وللقتل دفاعًا عن رسول الله ﷺ ، وفى رحلة الهجرة كان عليه السلام يجعل من نفسه حاميًا له ، فكان يقدم نفسه حين يحتمل الخطر فداء لرسول الله ﷺ .

٤ ــ **على بن أبى طالب** : من أبرز مواقف الحب والفداء فى حياته نومه فى فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة وهو يعلم أنَّ بالباب عشرة شبان يحملون السيوف ويحتمل أن يتقدموا فيقتلوا من يجدونه بالفراش .

(*) المرجع السابق .

www.dvd4arab.com

٥ ــ **عمار بن ياسر** : كـان يعذب فى بطحاء مكة حتى يشرف على الموت ، فقال له : اذكر محمدًا بسوء كى يرفع عنك العذاب ، فيرفض ويقول : والله ما أرضى أن تشوك محمدًا شوكة وأنا آمن فى أهلى .

٦ ــ **عمرو بن العاص** : يقول معبرًا عن حبه الكبير لرسول الله ﷺ :

« ما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيـق أن أملأ عينى منـه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينى منه » .

٧ ــ **زيد بن الدثنة** : أسره المشركون وساقوه إلى ساحة القتـل شامتين ، وقال له أبو سفيان والرمح موجه إلى بطنه :

أنشدك بالله يا زيد .. أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنت سالم فى أهلك ؟

فقال زيد : والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانى الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس فى أهلى .

٨ ــ **ثوبان** : لاحظ رسول الله ﷺ أن مولاه ثوبان يبدو عليه شحوب فى الوجه وحزن دائم وهو مع ذلك يطيل إليه النظر فسأله قائلاً : يا ثوبان ما غيَّر لونك ؟ فقال :

يا رسول الله ما بى من ضر ولا وجع ولكنك تعلم أنك أحب إلىَّ من نفسى وأهلى وولدى ، وأنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفتُ أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وخشيت ألاَّ أراك . فطمأنه الله (عزَّ وجل) ، ونزل الوحى من السماء يقول : ﴿ ومَنْ يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ﴾ .

٩ ــ **حب النساء المؤمنات لرسول الله ﷺ** : هكذا أحب الرجال رسول الله ﷺ وإذا أردنا سرد أمثلة ونماذج أخرى فإن المقام يطول ، وكما أحبه المؤمنون من الرجال أحبته المؤمنات من النساء ، ولهن فى ذلك مواقف عديدة نذكر منها نموذجين كلاهما عبَّر عن مشاعره فى يوم المحنة الأليمة التى عاشها رسول الله والمسلمون بعد موقعة أحد .

النموذج الأول ما كان من أم سعد بن معـاذ حين رأت رسول الله يركب فرسه وابنها سـعد يأخذ بلجامها فاقتربت منـه سيدة قال عنها سعد : يا رسول الله أمى ، فوقف لها الرسول وتوجه إليها بالتعزية إذ كانت قد فقدت فى المعركة ابنها عمرو بن معاذ فقالت :

أما إذ رأيتك سالمًا فكل المصائب أراها صغيرة ، ثم اقتربت منه امرأة من بنى دينار كانوا قد نعوا إليها زوجها وأخاها وأباها بعد أن استشهدوا فى المعركة فقالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيرًا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين فقالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشاروا إليه حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك صغيرة .

* * *

لقد عاش رسول الله ﷺ قلبًا يترقرق بالحب ونبعًا يتدفق بالخير ، فأحبه كل مَنْ خالطه وعاشره وأحبه كل من جاء بعده وتدارس سيرته ، وأجمع الجميع على أن يحبوه الحب العميق الدائم والمتجدد ، حبًّا لم يحظ به غيره عبر الزمان .

فهو حقًّا الإنسان المحبـوب والنبى المحبـوب ﷺ

Looloo
www.dvd4arab.com

الفهرست

الموضـــــوع	الصفحة
المقـدمـــة	٥
صاحب النَّسب الشريف	٧
صاحب الخلق الجميل	١٥
صاحب الخُلق الكريم	٢١
صاحب الذوق اللطيف	٢٩
صاحب الجسد الفتى	٣٨
صاحب العقل الراجح	٤٩
صاحب البيان الرائع	٦٧
صاحب الذكر المرفوع	٧٥
صاحب السُّنَّة المحفوظة	٨١
صاحب الإسراء والمعراج	٨٨
صاحب الدين العالمى	٩٥
صاحب الشَّفاعة	١٠٣
صاحب الحظوة عند ربه	١١٠
صاحب التكريم فى القرآن الكريم	١٢٤
صاحب المنزلة الأولى فى العبودية	١٣٧
النبى الخاتم	١٤٤
النبى العاقب	١٥١
النبى المحبوب	١٦١

الترقيم الدولى : ٦ - ١٥٢ - ٣٧٨ - ٩٧٧
رقم الإيداع : ١٨٧٤

Looloo
www.dvd4arab.com

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

محمد إسماعيل الجاويش

منزلة الرسول

(صلى الله عليه وسلم) الجزء الأول

إن منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم أرفع من كل رفعة ، وأعظم من كل عظمة ، فقد اصطفاه الله بفضله ، وكرّمه وأدّبه فأحسن تأديبه ، فصار في القمة من السمو الإنساني ، ليكون القدوة والأسوة والنموذج المثالي للبشر في كل تاريخهم وفي كل بقاعهم ، وليحمل الرسالة التي أتمت سلسلة النبوات ، فكانت اللبنة الأخيرة في البناء العظيم الذي جعله الله مشكاة النور ونبع الهداية للبشرية ، وبذلك صار عليه السلام إمامًا للأنبياء وخاتمًا للمرسلين ، وشرّفه ربُّه فرفع قدره وأعلى ذكره ومنحه الشرف الأسنى والمنزلة الأعلى بين البشر .

وإن الإحاطة بجوانب عظمته مهمة شاقة وأمر عسير ؛ لذلك نقول بكل الإجلال والتوقير ، وبكل الشعور بالتقصير ـ على ما بذلنا من جهد كبير ـ : هذا الكتاب نزر يسير من جوانب عظمة هذا الإنسان الكريم ، نرجو أن يكون صلاة عليه وطاعة لرب العالمين .

المؤلف

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

28/1/012